اجاثا كريستي
الطَّائرةُ المفقودَة
المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

أجاثا كريستي

الطَّائرةُ المفقُودَة

تعريب
عمر عبد العزيز أمين

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

الطائرة المفقودة

الفصل الاول

أزاح الرجل الجـالس إلى المكتب ، ثقالة الورق إلى يمينه ، بضع بوصات .

كان وجهه أقرب إلى ان يكون جامد السمات خلواً من التعبير اكثر من ان يكون غارقاً في التفكير او شارد الذهن .

وكان من الصعب عليك ان تتكهن بحقيقة عمره ، فهو لا يبدو كهلاً ولا يبدو شاباً ، فقد كانت بشرته ناعمة ملساء خالية من الغضون وان أطلت من عينيه نظرة تستكشف منها الإعياء .

أما الرجل الآخر الذي يشاركه نفس الغرفة فأكبر سناً ، وكان ملوح الوجه احمراراً ، وله شارب صغير عسكري الطراز ، وكان يبدو ملولاً لا يستقر على مقعده ، ولا يفتأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ومن حين لآخر يلقي بملاحظاته في كلمات حانقة .

إنفجر يقول ساخطاً :

ـ كلها مجرد تقارير !. تقارير ، وتقارير ولكن لا نفع فيها .

وتطلع الرجل الآخر الجالس إلى المكتب في الأوراق المكدسة أمامه ، والتي رشقت فيها بطاقة تحمل هذه الكلمات « بيترتون ، توماس شارل » ، وبعد الاسم علامة استفهام كبيرة .

ورفع الجالس إلى المكتب رأسه عن الأوراق وقال :

ـ إنك طبعاً قرأت كل هـذه التقارير . أفلم تجد فيها بادرة ذات جدوى ؟.

فأجاب الآخر متسائلاً :

ـ من يدري ؟

ـ صدقت .. تلك هي المشكلة .. فلا أحد يستطيع أن يقطع برأي .

وعقب الأكبر سناً بسيل من الكلمات بدا وكأنها تنطلق من مدفع رشاش ، قال :

ـ تقارير من روما .. وتقارير من تورين . لقد شوهد في الريفييرا .. وشوهد في انتويرب .. من المؤكد انهم رأوه في أوسلو ، ومن المؤكد انـه رئي ، في ستراسبورج وكان سلوكه باعثاً على الريبة ، وكذلك شوهد في شاطىء أوستند وفي صحبته شقراء رائعة الجمال .. والبعض لمحوه في شوارع بروكسل ومعه كلب سلوقي .

ثم أردف في نبرة تتسم بالسخرية :

ـ لم يبق إلا ان يشاهد في حديقة الحيوان ، يحتضن حماراً مخططاً وحشياً ..

وقال صاحب المكتب :

ـ إنك رجل تفتقر إلى الخيال يا هوارتون أما انا فأعلق شيئاً من الأهمية على تقرير انتورب .

وارتمى الكولونيـل هوارتون جالساً على مسنـد مقعد ، وقال في إلحاح :

– ولكن يجب ان تميط اللثام عن هذا اللغز .. يجب ان نجد جواباً على هذه الأسئلة : « كيف ؟ وأين ؟ » ، انك لا تستطيـع ان تسكت على اختفاء عالم فذ كل شهر تقريباً ، ثم تجد نفسك عاجزاً عن الاجابة على هذه الأسئلة البسيطة : « كيف ، ولماذا ، وأين ؟ » . أتراه حيث تعتقد انه موجود ، ام أنه ليس هناك .

ثم أردف :

– أتراك قرأت نتيجة التحريات الأخيرة ، عن بيارتون ، في أمريكا ؟

وأومأ الرجل الجالس إلى المكتب برأسه إيجاباً وقال :

– نفس الميول اليسارية المعروفة ، في الوقت الذي شاعت فيه واعتنقها الناس جميعاً .. ميول غير ثابتة وذات طبيعة غير مستقرة كما تبين فيما بعد ، وقبل الحرب أنجز أعمالاً هامة ذات شأن ، وعندما هرب ماتهم من المانيا عين بيارتون مساعداً له ، وانتهى به الأمر إلى ان تزوج إبنة ماتهم . ثم قفز إلى الشهرة باكتشافه المثير لتحطيم الذرة ، والحق ان تحطيم الذرة كان دون شك اكتشافاً ثورياً دفع بيارتون إلى القمة ، وجعـل منه قطباً من أقطاب العلوم الذرية .

ولكن زوجته ما لبثت أن ماتت عقب الزواج ، فانهار بيارتون حزناً عليها ، وفجعه موتها ، ثم جاء إلى انجلترا وعمل في هارويل ثمانية عشر شهراً ، ومنذ ستة شهور تزوج للمرة الثانية .

فتساءل هوارتون في حدة :

– وما معلوماتنا عن زوجته ؟

– لا شيء ذو أهمية ، كل ما نعرفه عنها انها إبنة عالم من أهل المنطقة ،

وكانت تعمل في إحدى شركات التأمين قبل زواجها ، وليست لها فيما عرفنا اتجاهات سياسية واضحة .

– وما الذي يقولونه عنه في هارويل ؟

– شخصية لطيفة محبوبة ، أما عن عمله فلا شيء ذا شأن بارز ، مجرد تحسينات أدخلها على جهاز تفتيت الذرة .

وران الصمت على الرجلين برهة من الوقت ، وكان حديثهما مجرد ثرثرة قطعاً للوقت ، لا تتسم بشيء من الجدية ، فإن تقارير الأمن لا تحوي عادة شيئاً جديراً بالاهتمام .

قال هوارتون متسائلا

– وطبعاً ، كانت تحركاته محل مراقبة ، منذ حط قدميه في انجلترا !.

– وكان كل شيء مرضياًتماماً

فقال هوارتون متأملا :

– ثمانية عشر شهراً ، وهو تحت المراقبة . انك تعلم ان هذه المراقبة تثير أعصابهم .. إحتياطات الأمن المتواصلة تحطم نفسيتهم ، الشعور بأنهم دائماً تحت المجهر ..

هذه الحياة المحسوبة عليهم في كل حركة من حركاتهم وكل لفتة من لفتاتهم .. كل هذا كفيل بأن يحملهم عصبيين ، وان يحملهم على تصرفات شاذة . فقد رأيت الكثير من هذه الحالات .

وسكت هنيهة ثم استطرد يقول :

– وعندئذ يبدأون في أن يحلموا بعالم مثالي ، عالم تسوده الحرية والأخوة ، وتشارك فيه الدول في أسرارها العلمية ذات الطابع العسكري ، وتعمل متضافرة من أجل خير الانسانية .

وتلك هي اللحظة الملائمة لكي ينقض عليهم شخص لا يهمه إلا ان يدمر

الانسانية ، إنه يرى الفرصة السانحة ويبادر إلى اقتناصها .

– وددت لو انني عرفت المزيد عن بيترتون ، لا أعني بذلك حياته أو عمله وإنما الأشياء الأخرى الصغيرة .

إن هذه الأشياء التافهة تكشف الكثير .. النكات التي تضحكه .. ما يستفز ويثيره ما يحمله يسب ويلعن ، الأشخاص الذين يعجب بهم ، او يثيرون حنقه .

وتطلع اليه هوارتون في عجب واستغراب .

ثم تساءل :

– وماذا بشأن زوجته ؟ أتراك استجوبتها ؟

– عدة مرات .

– أما من فائدة ترجى منها ؟

وهز صاحب المكتب كتفيه وقال :

– لا شيء حتى الآن .

– أتعتقد انها تعرف شيئا .

– إنها لم تعترف ، طبعـــاً ، بأنها تعرف شيئا ، او انها لاحظت شيئاً . لا قلق ولا حزن ولا يأس ولا اكتئـــاب . كانت تسير سيراً طبيعياً عادياً ، بلا ضغوط من أي نوع كان .. وهي تعتقد ان زوجها قد اختطف .

– وأنت لا تصدق هذا ؟

– إنني رجل كثير الوساوس والشكوك ، ولهذا لا أصدق أحداً .

وقال هوارتون في بطء وتمهل :

– على أية حال ، ينبغي على المرء ان يكون ذا ذهن متفتح بعيد عن التشبث .

ثم أردف :

ـ ولكن ما رأيك في الزوجة ؟
ـ طراز عادي تلقاه كل يوم منهمكاً في لعب البريدج
ـ هذا يزيد الأمر صعوبة رتعقيداً .

ـ إنها موجودة هنا الآن لمقابلتي ، ومن جديد ، سوف نعيد ونبدأ فيما كنا فيه .

فقال هوارتون .

ـ الآن لا داعي لبقائي ، فلا أريد ان أحتجزك أكثر من هذا ، إذ ليس لدينا ما نتداول فيه ، اليس كذلك ؟

ـ لا ، لسوء الحظ ، ولكني أريد منك ان تدرس تقرير وارسو وتتحرى عن دقة ما فيه من معلومات ، إذ يتراءى لي انه بداية طيبة .

وأومأ هوارتون برأسة موافقاً وغادر الغرفة .

ورفع الجالس الى المكتب سماعـــة التليفون ، وأمر باستدعاء مسز بيلرتون لمقابلته .

* * *

جاءت نقرات خفيفة على الباب ، ودخلت مسز بيلرتون .

كانت إمرأة طويلة القامة ، في حوالى السابعة والعشرين من العمر ، تتميز بشعر رائع أحمر اللون ذي مسحة نحاسية .

ولاحظ ان وجهها خال من التجميل .

وأثارت هذه الملاحظات في نفسه الشعور بأن مسز بيلرتون تعرف شيئـاً وانها تخفي ما تعلم .

لقد علمته خبرته الطويلة ان المرأة المسرفة في حزنها وقلقها لا تهمل أبداً

تجميل وجهها ، فهي تعرف ان الحزن الشديد يضفي على وجهها سمة منفرة بشعة ، فتبذل ما في وسعها لكي تصلح ما أفسده الحزن . ولكن لعل مسز بيترتون آثرت ان لا تتجمل حتى تبث في نفسه الاعتقاد بأنها شاردة الذهن ، غارقة في همومها لا تحفل بنفسها .

ورحب بها الرجل وأشار إلى مقعد ودعاها إلى الجلوس ، وقبل ان تستقر عليه هتفت به منبهرة الأنفاس :

– أوه مستر جيسوب ، أما من نبأ عن زوجي ؟

– يؤسفني يا مسز بيترتون ان جشمتك مشقة الحضور ، ولكني اخشى ان لا تكون لدي حتى الآن أنباء مؤكدة .

فعقبت اوليف بيترتون في كلمات سريعة :

– أعرف هذا ، فإنك أشرت إلى ذلك في خطابك ، ولكني كنت أرجو ان يكون قد بلغك نبأ جديد منذ بعثت إلى برسالتك .. ولكني سعيدة بأنك دعوتني إلى الحضور ، فأسوأ ما في الأمر ، اني حين أخلو الى نفسي في البيت ، لا أملك إلا ان أفكر وأتعذب ، فلا شيء لدي أفعله سوى هذا .

– أرجو ان لا يضايقك ، يا مسز بيترتون . ان أعود مرة أخرى ، إلى ما كنا فيه ، وإلى ترديد نفس الأسئلة ، ومعاودة الالحاح على نفس النقط ، فإن من المحتمل دائماً ان تبدر كلمة واحدة تكون مفتاحاً لحل اللغز ، او ان تذكري شيئاً نسيته في مرة سابقة .

– إني أدرك ذلك ، فوجه إلي مرة أخرى ، نفس الأسئلة ، إذا طاب لك ذلك .

واستهل مستر جيسوب استجوابها بأن قال :

– كانت آخر مرة رأيت فيها زوجك في اليوم الثالث والعشرين من شهر أغسطس اليس كذلك ؟

– تماماً يا سيدي .
– وكان هذا عند مغادرته انجلترا الى باريس ، لحضور أحد المؤتمرات ؟
– نعم .
– وحضر زوجك اليومين الأولين من أيام انعقاد المؤتمر ، ولكنه تخلف في اليوم الثالث، وتبين انه ذكر لأحد زملائه انه سيذهب بدلاً من ذلك في رحلة نهرية في نهر السين .
– رحلة نهرية ؟
– نعم ، في تلك القوارب التي تجوب نهر السين .

ثم تأملها جيسوب بنظرة فاحصة وقال :
– أيدهشك هذا التصرف من قبل زوجك يا مسز بيترتون ؟

فأجابت في شيء من التردد :
– نعم يدهشني ، فعهدي به انه كان شديد الحرص ، على حضور المؤتمر .
– هذا جائز ، ومع ذلك فإن الموضوع الذي كان مطروحاً للمناقشة في المؤتمر في ذلك اليوم ما كان من الموضوعات التي تهم زوجك ولذا آثر ان يتخلف عن الجلسة وان يمنح نفسه عطلة يرتاح فيها ، ولكن ألا يبدو لك غريباً ان زوجك مولع بالرحلات .

وهزت رأسها إيجاباً ، واستطرد جيسوب :
– وفي تلك الليلة لم يرجع زوجك إلى فندقه ، وطبقاً لمعلوماتنا المؤكدة فإنه ما عبر الحدود ، او على الأقل لم يستخدم جواز سفره في اجتيازها ، هذا إذا كان قد عبرها .
ثم اردف يسألها :
– اتعتقدين ان لزوجك جواز سفر آخر باسم مستعار مثلاً ؟

– لا بالطبع ، ما الذي يدعوه الى هذا ؟

– الم تري في متاعه مثل هذا الجواز ؟

وهزت رأسها نفياً بشدة واضحة وقالت :

– لا ، كما اني لا أصدق ابداً انه يمكن آن يقدم على هذا .. انه لا يمكن ان يغادر باريس عمداً واختياراً كما تحبون ان تصوروا اختفاءه ، لا بد ان شيئاً حدث له ، او أنه فقد ذاكرته .

– أكانت صحته عادية وسليمة ؟

– نعم ، كان يجهد نفسه في العمل ، وفي بعض الأحيان يحس انه متعب مكدوداً ، ولكن لا شيء أكثر من هذا .

– الم يكن يبدو قلقاً او مكتئباً على أية صورة ؟

– لا ، لم يكن ابداً قلقاً او مكتئباً لأي سبب كان .

وبأصابع مرتعدة ، فتحت حقيبتها ، وتناولت منديلها وسترت به وجهها .

وتهدج صوتها وهي تقول :

– إن الأمر فظيع ، فظيع جداً .. اني لا أستطيع ان أصدق ما حدث .. إنه لم يسافر أبداً دون ان يخطرني ، لا بد ان شيئاً حدث له ، إما ان يكون قد اختطف ، وإما ان اعتداء وقع عليه . إني أحاول دائماً ان أطرد الأفكار والوساوس من ذهني ، ولكني في بعض الأحيان لا أملك إلا ان أتخيل ان التعليل الوحيد هو انه قتل .

– أرجوك يا مسز بيترتون ان تنزعي هذا الخاطر من رأسك ، إذا كان قد قتل فلا بد ان تكون جثته قد اكتشفت الآن .

– وما يدرينا ان يكون قد أغرق في أحد الأنهار مثقلاً بالأحجار ؟ هذا ما يحدث في بعض الأحيان .

– إنك تسرفين في الأوهام والتخيلات يا مسز بيترتون .

وأزاحت المنديل عن عينيها ، وحدجته بنظرة يتبدى فيها غضب شديد وقالت :

– إني أعرف ما يدور في خلدك ، لكن الأمر ليس كما تتصور .. ان توم لا يمكن ان يبيع الأسرار او يفشيها انه لم يكن شيوعياً او فاشيستياً حتى يفشي أسرار إلى هؤلاء أو أولئك .

فسألها :

– وما عسى ان تكون معتقداته السياسية يا مسز بيترتون ؟

– أعتقد انه كان في أمريكا ديموقراطياً ، وهنا في انجلترا كان يصوت مع حزب العمال .. وعلى أية حال ، فإنه لم يكن يهتم بالسياسة .

ثم أضافت في نبرة منطوية على التحدي :

– إنه كان « عالماً » ، قبل كل شيء .. وكان عالماً فذاً لامعاً .

فقال جيسوب :

– تماماً ، كان عالماً فذاً لامعاً ، وتلك هي المشكلة ، ما يدرينا انه عرض عليه مرتب ضخم أغراه بمغادرة البلاد ليعمل في مكان آخر ؟

وتفجر الغضب في صوتها وهي تقول في انفعال :

– هذا غير صحيح .. وهو ما تحاول الصحف ان توحي به وتثبته في الأذهان ، وهو ما يدور في رؤوسكم جميعاً عندما جئتم إلي تستجوبوني .. ولكنه ليس صحيحاً ! إنه ما كان ليرحل ابداً إلا اذا أخطرني ، او على الأقل أعطاني فكرة عن نواياه .

– ألم يخبرك بشيء ؟ أي شيء ؟

والمرة الثانية كان يحدجها بنظرة فاحصة .

فأجابت :

– لا شيء على الاطلاق .. انني لا أعرف اين هو الآن ، ولكني اعتقد انه إما ان يكون قد اختطف .. او قتل .

– إني آسف يا مسز بيترتون .. آسف جداً .. ولكن أرجوك ان تتأكدي من اننا نبذل أقصى ما في وسعنا فنعرف حقيقة ما وقع لزوجك ، إننا نتلقى كل يوم تقارير من مختلف الجهات .

فتساءلت في حدة :

– وما الذي تحويه هذه التقارير ؟

– إننا لا نزال ندرسها .ونتبين صحتها من زيفها ، لكنها بوجه عام غامضة ولا شيء قاطع فيها .

فعادت ترد في صوت نابض باليأس :

– ولكن يجب ان أعرف ما فيها .. انني لا أستطيع ان أستمر على هذا .

وران عليهما الصمت برهة ثم قال جيسوب :

– الذي أحاول ان أصل اليه يا مسز بيترتون هو ان أتمثل صورة صادقة لزوجك .. أي نوع من الرجال هو ، ولكنني ارى انك لا تحاولين ان تساعديني .

– وما عساي استطيع ان أقول اكثر مما قلت ؟ فقد اجبت على جميع أسئلتك .

– صحيح انك أجبت على أسئلتي ، غير ان معظم إجاباتك كانت النفي او الانكار .. اني اريد رداً ايجابياً ، رداً بناء . هل تدركين ما أعني ؟ انك تستطيعين ان تنفذي الى خبايا الرجل ودخائله اذا عرفت أي نوع من الرجال هو .

وتريثت فترة مفكرة ثم ردت :

– فهمت ، وكل ما استطيع قوله هو ان توم كان رجلاً مرحاً لين العريكة

وكان طبعا قديراً في مهنته .

فابتسم جيسوب وقال :

- هذه اوصاف عامة يمكن ان تنطبق على اي انسان ، ألا يمكن ان نتكلم عن صفات ذات طابع شخصي ، صفات اكثر التصاقا به ، مثلاً هل هو مولع بالاطلاع والقراءة ؟

- نعم ، انه يقرأ كثيراً .

- أي نوع من الكتب يؤثره ؟

- تراجم المشهورين وسير حياتهم .. وايضا كتب الاجتماع وقصص الجريمة عندما يكون مجهداً .

- اذن فهو قارىء تقليدي كمعظم الناس .

ثم اردف يسألها :

- ايلعب الورق او الشطرنج ؟

- انه يلعب البريدج ، وقد اعتدنا ان نلاعب الدكتور ايفانز وزوجته مرة او مرتين في الأسبوع .

- هل لزوجك أصدقاء كثيرين ؟

- نعم ، فهو يحب الاختلاط والحياة الاجتماعية .

- ليس هذا ما عنيت ، وانما اردت ان أسأل عما اذا كان رجلاً يولي اصدقاءه اهتماما شديداً .

- انه يلعب الجولف عادة مع واحد او اثنين من جيراننا .

- اليس له اصدقاء حميمون او خلان قدماء .

- كلا . انك تعلم ، انه ولد في كندا ، وامضى في الولايات المتحدة ، ردحا طويلاً من الزمن ، فلم تهيأ له الفرصة هنا لمعرفة الكثيرين .

وتطلع جيسوب في ورقة منشورة امامه على المكتب وقال :

– اننا نعرف ان ثلاثة اشخاص من الولايات المتحدة زاروه في الأيام الأخيرة ، وأسماؤهم مسطورة لدي هنا .. وطبقا لتحرياتنا ، فإن هؤلاء الثلاثة هم الوحيـــدون ، الذين زاروه « من خارج البلاد » ، ولذلك فإننا نولي امرهم اهتماما خاصا ، واولهم ولتر جريفيث وقد زاركم في هارويل .

– صحيح ، فقد اتى الى انجلترا وحضر لزيارة توم .

– وماذا كان رد الفعل عند زوجك .

– دهش توم لرؤيته ، ولكنه كان سعيداً جدا بهذه الزيارة ، فقد كانت بينهما في امريكا معرفة وثيقة .

فسألها جيسوب :

– وعلى اية صورة بدا جريفيث في نظرك .

– ولكنكم حتما تعرفون كل شيء عنه .

– نعم ، اننا نعرف عنه كل شيء ، ولكني اريد ان أسمع منك انت رأيك فيه .

وفكرت لحظة ثم ردت :

– انه يبدو رجلا جادا يبعث مجلسه على الضجر ، وكان مهذبا جدا شديد المجاملة في لقائه معي . ولاح لي انه مولع جدا بتوم ومتلهفا الى ان يحدثه عما جرى في الولايات المتحدة ، منذ ان بارحها توم الى انجلترا . واظن ان حديثه كان يـدور حول الأخبار المحلية ، ولكنه لم يكن بالنسبة لي حديثا مسليا ، إذ لم اكن اعرف احدا ممن يتحدث عنهم ، وعلى اية حال فقد كنت بسبيل إعداد العشاء ، ولذا فقد تركتهما معا يستعيدان الذكريات القديمة .

– الم يتحدثا في السياسة .

وتضرج وجه مسز بيترتون احمرارا وردت :

ـ لعلك تحاول ان تلمح الى ان جريفيث شيوعي او فاشيستي ، اني واثقة من انه ليس بهـذا او ذاك ، انه فيا اعتقـد موظف في مكتب النائب العام .

ـ والآن فلننتقل إلى الزائر الثاني الذي اتى من وراء البحار ، الدكتور مارك لوكاس ، إنكما التقيتما به صدفة في فندق دورسيت .

ـ هذا صحيح .. كنا نتناول العشـاء في دورسيت بعد خروجنا من المسرح ، فإذا بنا نلتقي فجأة بهذا الرجل ، إنه يعمل باحثاً كياوياً ، وآخر مرة التقى فيها بتوم كانت في الولايات المتحدة .. وهو لاجيء ألماني اكتسب الجنسية الأمريكية ، وأنت طبعاً تعرف كل هذا .

ـ نعم ، إني أعرف ذاك يا مسز بيترتون .

ثم أردف :

ـ هل دهش زوجك لرؤيته ؟

ـ نعم دهش جداً .

ـ وهل سر بلقائه ؟

ـ نعم ، نعم ، أظن ذاك .

ـ ولكنك غير متأكدة .

ـ قد فهمت من توم فيا بعد ان هذا الرجل لا يهمه .

ـ وهذا اللقاء ؟. أكان مجرد صدفة ؟. ألم يكن هناك تدبير سابق بحيث يبدو اللقاء عارضاً ؟

ـ كلا ، بل كانت مقابلة عارضة .

واستطرد غيسوب :

ـ أما الزيارة الأخيرة فقد كانت صاحبتها سيدة تدعى مسز كارول سبيدر وكانت هي الأخرى قادمة من الولايات المتحدة فكيف تمت تلك المقابلة ؟

فأجابت مسز بيترتون :

- أعتقد انها موظفة بالأمم المتحدة وكانت قد تعرفت بتوم عندما كان مقيما في أمريكا ، وقد اتصلت به تليفونياً من لندن ، وأخبرته بوجودها في انجلترا وسألته عما إذا كنا نستطيع ان نتناول الغداء في يوم من الأيام ، ولكننا اعتذرنا عن عدم تلبية دعوتها .

- انك انت التي لم تزوريها ، أما زوجك فقد لبى الدعوة .

فحملقت فيه دهشة وهي تقول :

- ماذا تقول ؟

- ألم يقل لك زوجك انه زارها ؟

- كلا .. لم يخبرني بشيء .

وبدت مسز بيترتون قلقة ومرتبكة ، وأحس الرجل الذي استجوبها بالرثاء لها .

وغمغمت الزوجة في صوت خافت مأخوذ :

- من الغريب انه لم يحدثني بشيء عن زيارته لها .

وتابع جيسوب :

- لقد تناول الغداء معها في فندق دورسيت حيث كانت مسز سبيدر تقيم وكان ذلك في يوم الأربعاء ١٢ أغسطس .

فقالت متأملة :

- الأربعاء ١٢ أغسطس ؟ نعم فقد ذهب إلى لندن في ذاك اليوم ولكنه لم يشر أبداً إلى التقائه بها .

ثم تفجر على لسانها السؤال الذي كان يصطخب في رأسها :

- ما شكلها ؟ ما هيئتها ؟

- ليست من النوع الرائع الخلاب يا مسز بيترتون إمرأة شابة كادحة في الثلاثين من العمر ، وليست من النوع الذي يسترعي الأنظار ، وليس هناك ما يدل مطلقاً على انها على صداقة وثيقة بزوجك ، فهذا ما يدعو إلى التساؤل عما

حدا به إلى كتمان الأمر عنك .

– نعم ، نعم ، انه غريب حقاً .

– والآن أرجوك يا مسز بيترتون ان تفكري جيداً .. الم تلاحظي أي تغيير في سلوك زوجك منذ ذاك اليوم ؟ أي حوالي منتصف شهر أغسطس ؟ أعني قبل سفره إلى المؤتمر بنحو أسبوع .

– لا .. لا .. لم ألاحظ أي شيء .. كان سلوكه عادياً لم يطرأ عليه تغيير .

ودق جرس التليفون الداخلي الموضوع على مكتبه، فتناول السماعة وأدناها من أذنه ، وأتاه صوت من الطرف الآخر يقول :

– هنا رجل يريد ان يقابل أحد المسؤولين بشأن موضوع بيترتون .

– ما اسمه ؟

وخط غيسوب الاسم على قصاصة أمامه ثم قال :

– أهو بولندي الجنسية ؟

– لا أدري يا سيدي .. إنه يتكلم الانجليزية بطلاقة ، ولكن بلكنة أجنبية .

– حسناً ، أطلب اليه ان ينتظر .

ودفع غيسوب إلى مسز بيترتون بالقصاصة المسطور عليها الاسم وسألها :

– أتعرفين أحداً بهذا الاسم ؟

واتسعت عيناها دهشة وهي تقرأ الاسم ، وخيل اليه ان بادرة من الخوف غشيت عينيها لحظة :

– نعم ، إني أعرفه .. فقد بعث إلي بخطاب بالأمس . إنه ابن خالة زوجة توم الأولى .. وقد وصـــل لتوه إلى هذه البلاد ، وكان شديد الاهتمام بمسألة اختفاء توم ، فكتب إلي يسألني عما إذا كانت لدي أية أنباء عنه .

– ألم تسمعي عنه من قبل ، ألم تتقابلا ؟
فهزت رأسها نفياً وأجابت :
– لا ، لم يحدثني زوجي عنه أبداً ولم التق به في يوم من الأيام .
– إذن من المحتمل ان يكون مدعياً ؟
– هذا الخاطر لم يدر بخاطري .
ثم أردفت :
– كانت زوجة توم الأولى أجنبية ، إنها ابنة البروفسور مانهايم . فهذا الشخص كما يتبدى من خطابه يعرف كل شيء عنها وعن توم .. ولكن إذا كان مدعياً فما الهدف من وراء ذلك ؟
فرد غيسوب باسماً .
– إنه السؤال العويص الذي يتردد على السنتنا بهذا المكتب .. إننا دائماً نسأل أنفسنا ما الهدف من هذا ، وما الهدف من ذاك ؟ ومع ذلك فالجواب دائماً مستعص لا سبيل اليه .
وقالت مسز بيترتون :
– إني لم أعد أطيق هذه الحال . لا شيء إلا ان أجلس وأنتظر .. إني أريد ان أسافر إلى اي مكان على سبيل التغيير .. وإني أفضل ان أسافر إلى الخارج لأروح عن نفسي . إني موشكة على الانهيار . اني أحاول ان أتشبث بالشجاعة ، ولكن أعصابي لم تعد تحتمل .. فقد كتبت إلى طبيبي أستطلع رأيه ، فأشار علي بضرورة السفر على سبيل الاستجمام ثلاثة او أربعة أسابيع .
وأخرجت من حقيبتها خطاب الطبيب ، ودفعت به إلى غيسوب ، فقرأه وأعاده اليها فسألته :
– أيمكن السماح لي بالسفر؟
فنظر اليها بدهشة وقال :

– طبعاً يمكنك ان تسافري متى شئت يا مسز بيلرتون .
– كنت أخشى ان تعترضوا .
– ولماذا نعترض ؟ كل ما هنالك هو اني اريد ان أعرف مقرك لأتصل بك إذا أتتني بعض الأنباء .

فردت :

– في نيتي ان أسافر الى مكان مشمس ، اسبانيا او مراكش .
– اذن أتمنى لك رحلة طيبة .

وانصرفت وهي ما تزال بادية القلق والاضطراب .

الفصل الثاني

ما أن انصرفت أوليف بيترتون حتى استدعى الزائر الذي كان في الانتظار إلى مقابلة مستر جيسوب .

قال الزائر وهو يستوي جالساً على أحد المقاعد :

– اني الميجور غلايدر ، وهاك خطاب تعريف من السفارة الأمريكية .

وجرى جيسوب بعينيه على سطور الخطاب في نظرة سريعة ، ثم وضعه أمامه على المكتب وسأله :

– أية خدمة أستطيع أن أوديها لك يا ميجور ؟

– إنني قادم لتوي من الولايات المتحدة ، وقد أتيت اليك أسألك عما إذا كانت لديك أنباء جديدة عن توماس بيترتون الذي اختفى أخيراً بطريقة مثيرة ، إن المرء لا يستطيع أن يصدق دائماً ما تنشره الصحف وقد قيل لي انك الوحيد الذي لديه معلومات موثوق بها .

فقال غيسوب :

– يؤسفني انه ليست لدي معلومات مؤكدة عن بيترتون .

– لقد خطر لي أنه ربما أوفد إلى الخارج في مهمة خاصة . مهمة سرية .

فقال غيسوب في كلمات متمهلة :

– ان بيترتون يا سيدي العزيز مجرد عالم ، وليس ديلوماسياً أو عميلاً سرياً .

فاستطرد الميجور غلايدر بنفس اللهجة الجدية :

– إن الألقاب كثيراً ما تكون خداعة يا مستر غيسوب ، ولعلك الآن تتساءل عما يدفعني إلى الاهتمام بهذا الموضوع .. إن توماس بيترتون يمت إلي بصلة القربى عن طريق الزواج .

– إنك فيما أعتقد ابن اخت البروفيسور مانهايم .

– آه .. إنكم هنا تتحرون عن كل إنسان .

فغمغم غيسوب باسماً :

– إن الناس يأتون الينا هنا ويفضون الينا بما لديهم ، لقد كانت مسز بيترتون هنا ، وهي التي أخبرتني بهذا ، وقالت أيضاً أنك بعثت اليها برسالة.

– نعم .. كتبت اليها أعزيها وأسألها عما إذا كان لديها أنباء جديدة .

واستطرد الميجور غلايدر يقول :

– أن أمي هي الأخت الوحيدة للبروفيسور مـانهايم ، وكانا شديدي التعلق كلاهما بالآخر ، وعندما كنت طفلاً كنت أقضي معظم الوقت في بيت خالي ، وكانت الزا بالنسبة لي بمثابة أخت شقيقة ، وعندما مات أبي وأمي انتقلت للاقامة في بيت خالي ، وكانت أياماً سعيدة ، ثم جـــاءت الحرب بويلاتها ومآسيها ، وهرب خالي وإلزا إلى أمريكا ، أما أنا فبقيت في بولندا ، وانضممت إلى المقـــاومة السرية ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، سافرت إلى الولايات المتحدة لأزور خالي وابنة خالي ، هذا هو كل شيء ..

وتابع الحديث قائلاً :

– وبعد أن فرغت من انجاز المهام التي أوكلت إلي في أوربا قررت أن استقر في الولايات المتحدة بصفة دائمة لأكون على كثب من خالي وابنة خالي

وزوجها ، ولكن واأسفاه ! ما كدت أصل الى أمريكا حتى مـات خالي في حادث سيارة ، ثم ماتت إلزا ابنة خالي ، أما توماس بيترتون زوج ابنة خالي فرحل إلى انكلترا وتزوج للمرة الثانية ، وعدت أنا كما كنت من قبل بغير أسرة ارتبط بها ، وعندئذ قرأت في الصحف نبأ اختفاء العالم الشهير توماس بيترتون ، فحضرت إلى انجلترا لأرى ما يمكن عمله .

وتراخى الميجور غلايدر في مقعده وقال متسائلاً :

– مستر غيسوب ، لماذا اختفى بيترتون ؟

فقال غيسوب :

– تمنيت لو أني عرفت .

– ولكنك تشتبه في شيء ما على الأقل ؟

فقال غيسوب في حذر :

– هذا جائز ، فاختفاء بيترتون ليس الأول من نوعه .

– هذا صحيح ، فقد قرأت عن الكثير من حوادث الاختفاء .

وأخذ الزائر يشير في كلمات سريعة إلى عدد من حوادث الاختفاء التي وقعت في العهد الأخير .

ثم عقب بقوله :

– وكلهم من العلماء ، اليس هذا غريباً ؟

ولبث غيسوب صامتاً .

فاستطرد الميجور غلايدر :

– أتراهم ذهبوا إلى ما وراء الستار الحديدي ؟

– هذا أحد الاحتمالات ، ولكنه ليس احتمالاً قاطعاً ، فمن المحتمل أنهم انضموا إلى إحدى الجماعات السريه الفاشيستية ، أو أنهم ضاقوا بعملهم .

– ولكنهم طبعاً ذهبوا طواعية واختياراً ؟

فقال غيسوب :

– حتى هذا سؤال من الصعب الاجابة عليه .

ثم أردف :

– ولكن ما هو سر اهتمامك بباترتون ، وهو بالنسبة اليك ليس إلا مجرد نسيب عن طريق الزواج ؟ بل انك لم تقابله أبداً في حياتك .

– هذا صحيح ، ولكن الأسرة عندنا معشر البولنديـين من الروابط الوثيقة ، وهي تفرض علينا التزامات لا نملك أن نتحلل منها .

ونهض غلايدر واقفاً وأحنى رأسه تحية في جفاء وقال :

– يؤسفني أن شغلت من وقتك أكثر مما ينبغي ، شكراً على أن قابلتني .

ونهض غيسوب واقفاً وهو يقول :

– يؤسفني انني لم أستطع أن أساعدك ، ولكنني أحب أن أؤكد لك اننا لا نعرف شيئاً على وجه اليقين ، ولكن إذا بلغني أي نبأ فأين يمكن أن أتصل بك ؟

– طرف السفارة الأمريكية ، وأكرر لك الشكر .

وللمرة الثانية انحنى تحية ، واستدار منصرفاً .

ورفع غيسوب سماعة التليفون يدعو الكولونيل هوارتون إلى مكتبه .

وابتدره غيسوب بقوله :

– أخيراً بدأت الأمور تتحرك .

– حقاً ، وكيف حدث هذا ؟

– مسز بباترتون تريد ان تسافر إلى الخارج .

– أتراها تنوي أن تلحق بزوجها ؟

– هذا ما أرجوه ، لقد جاءتني مزودة بتقرير طبي ينصحها بالسفر طلباً للراحة والاستجمام .

– تدبير محكم منها .

فقال معتذراً :

ـ ومع ذلك فقد تكون حقاً مقبلة على انهيار عصبي .

وتساءل هوارتون :

ـ هل استطعت أن تنتزع منها شيئاً ؟

ـ مجرد بادرة ضعيفة ، بيلرتون كتم عن زوجته انه تناول الغذاء في فندق دورسيت مع هذه المرأة المدعوة اسبيدر .

فغمغم هوارتون قائلاً :

ـ أتعتقد أن لهذا صلة باختفائه .

ـ ربما ، فقد سبق ان استجوبت كارول اسبيدر ، أمام لجنة فحص النشاط المعادي لأمريكا ، وإن كانت قد استطاعت ان تثبت براءتها .

وتساءل هوارتون :

ـ وهل اتصلت مسز بيلرتون بأحد فأصدر اليها تعليماته بالسفر إلى الخارج

ـ لم يزرها احد في بيتها ، وإن كانت قد تلقت بالأمس خطاباً من رجل بولندي هو ابن خالة بيلرتون الأولى ، وقد كان هنا في مكتبي منذ قليل يستفسر عما لدي من أنباء .

ـ أيكون هو الذي حرضها على السفر ؟

ـ هذا محتمل ، وإن كنت لا أدري الحقيقة .

ـ وهل تنوي أن تضعه تحت المراقبة ؟

فأجاب غيسوب :

ـ بل وضعته فعلاً ، فقد دققت الجرس السري مرتين بمجرد خروجه من مكتبي . .

فضحك هوارتون قائلاً :

ـ يا لها من رموز سرية تفيد في حالات الاستعجال

وعاد هوارتون يتساءل :

ـ وإلى أية جهة تنوي بيلرتون أن تسافر ؟ إلى سويسرا ؟
ـ بل إلى مراكش أو اسبانيا .
وقلب غيسوب بظرف اصبعه التقارير المكدسة أمامه
ـ هذان هما البلدان الوحيدان اللذان لم يرد الينا منهما أي تقرير عن بيلرتون .
وتراخى غيسوب في مقعده ، وأسند رأسه على ظهر المقعد وهو يقول :
ـ اني لم أقم بعطلة منذ شهور . ولعل مما يفيد صحتي أن أسافر الى الخارج في هذه الأيام ..
فضحك هوارتون وقال :
ـ طبعاً إلى مراكش أو إسبانيا ، وفي أعقاب مسز بيلرتون .
والتقت نظراتهما في تفهم كامل .

الفصل الثالث

« انتبهوا .. انتبهوا .. شركة ايرفرانس .. الرحلة رقم ١٠٨ إلى باريس .. »

ونهض الجالسون في قاعة الانتظار في مطار هيث رو وتقاطروا متجهين الى الباب ، ينشدون الطائرة التي ستقلهم الى باريس .

وتناولت هيلاري كراقن حقيبة سفرها الصغيرة الحجم ، وانضمت الى موكب المسافرين .

كان الجو بارداً لاذعاً في ساحة المطار ، وشدت هيلاري معطفها الفراء حول عنقها تقي نفسها لسعات البرد ، وهي تقفو المسافرين الى حيث تستقر الطائرة .

إذن فقد انتهى الأمر ، ها هي ذي منطلقة هاربة بعيداً عن الاكتئاب ، والبرد ، والبؤس المميت . هاربة الى الشمس المشرقة ، والسماء الزرقاء الصافية ، الى حياة دافقة .. وستطرح وراءها كل الهموم والأثقال ، هذه الهموم المتسمة بالبؤس والقلق .

وتابعت طريقها الى ممر الطائرة ، واستقرت على المقعد الذي ارشدتها اليه المضيفة .

ولأول مرة منذ شهور خالجها شعور من الراحة من العذاب الذي أمضتها

بقسوة حتى لقد احسست منه بما يشبه الألم الجسماني .

وتمتمت تحدث نفسها في أمل ورجاء :

ـ سأهرب ، سأبتعد .. نعم سأبتعد !

وانتزعها من خواطرها هدير الطائرة الصاخب ، ولكنها ما لبثت أن عادت تردد في نفسها :

ـ الان سأذهب وابتعد .

وبدأت الطائرة تنزلق على أرض الممر ، وقد شد المسافرون أحزمة الوقاية على بطونهم .

ودارت الطائرة نصف دورة في ساحة المطار ، ثم توقفت تنتظر اشارة الرحيل .

وخطر لها :

ـ ما يدريني ان الطائرة قد تتحطم ، وعندها قد تكون تلك النهاية ، الحل الموفق لكل شيء .

وخيل اليها انهم انتظروا في ساحة المطار وقتاً طويلاً لا ينتهي ، مترقبين إشارة الرحيل الى الحرية .

وهمست تخاطب نفسها :

ـ يبدو اني لن أسافر أبداً ، سأظل هنا حبيسة لا أستطيع الفرار .

وأخيراً هدرت المحركات من جديد ، وبدت الطائرة تجري على الممر المعهد المرصوف .. أسرع ، ثم أسرع ثم أسرع .

ـ ولكن من يدري .. ربما لن تعلو في الجو .. أتكون هذه إذن هي النهاية ؟

ولكن الطائرة أخذت تعلو في الجو ، وبدأوا يبتعدون عن سطح الأرض ، وبدا كل شيء صغيراً ضئيلاً ـ حتى الهموم تضاءلت وانكمشت وحتى القلق تبدد وتوارى ، وبدت الأبنية والسيارات كأنها لعبة أطفال .

والآن كانوا فوق السحب البيضاء ! المشوبة بمسحة رمادية.. لا بد انهم الآن فوق القنال الانجليزي .

وأرخت هيلاري جفـــونها ، وأطبقت عينيها ، وأسندت رأسها الى ظهر المقعد .

الحرب !. الحرب !. فها هي ذي قد غادرت .. انجلترا الى غـــير رجعة .. ها هي ذي قد تركت خلفها ناجيل ، وتركت خلفها تلك البقعة الحزينة المقبضة التي هي قبر بريندا .

كل ذلك تركته خلفها ، بعيداً ، بعيداً .

وفتحت هيلاري عينيها ، وعادت تطبقها مرة أخرى ، ثم ما لبث النعاس ان طغى عليها واستغرقت في النوم .

* * *

عندما صحت هيلاري من نومها كانت الطائرة في طريقها الى الهبوط .. لا بد اذن انهم وصلوا باريس .

وزايلت كرسيها ، وحملت حقيبتها ، ونزلت من الطائرة الى سيارة المطار ولكنها لم تكن باريس تلك التي نزلوا فيها .

أتت المضيفة الجوية الى السيـــارة ، وتحدثت اليهم بذلك الصوت الناعم الحنون المأثور عن المضيفات :

ــ لقد اضطررنا ان نهبط في « بوفيه » لأن الضباب كثيف في باريس .

ونظرت هيلاري من وراء زجاج السيارة لكن الرؤية كادت تستحيل عليها فقد كانت بوفيه هي الأخرى غارقة في الضباب . وتوقفت بهم السيارة أمام مبنى خشبي عتيق ليس فيه إلا بضعة مقاعد وارائك من الخشب .

وطغى على هيلاري شعور بالانقباض حاولت ان تدفعه عن نفسها ، وغمغم الرجل الجالس قربها :

– انه مطار حربي قديم بلا تدفئة او شيء من وسائل الراحة ، ولكن ما أحسب وهم فرنسيون ان يبخلوا علينا بالشراب .

ونطق الرجل حقا ، فما هي الا لحظات حتى أتى مضيف يدور عليهم بأقداح الشراب .

وتتابعت الساعات دون ان يقع جديد ، فيما عدا طائرات تنبثق متتابعة من أستار الضباب وتحط متزاحمة على أرض المطار الصغير ، وتكدست القاعة بمسافرين حانقين متذمرين من التأخير الذي طرأ على رحلاتهم .

وأخيراً ، عندما هبط الليل ، اتت سيارات الأتوبيس لتحمل المسافرين الى باريس .

كانت رحلة مملة مضجرة إنحشر الركاب في السيارات أربع ساعات الى ان شارفوا ضواحي باريس فبلغوها وقد انتصف الليل .

وأسعد هيلاري ان تحمل حقيبتها وتستقل تاكسيا وتمضي الى فندق حجزت لها فيه احدى الغرف ، وكانت متعبة مكدودة ، تهفو الى حمام ساخن تلوذ بعده بالفراش .

وكان مقرراً ان تبرح الطائرة المسافرة الى كازابلانكا مطار اورلي في العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي بيد ان مطار اورلي في ذلك الصباح المعهود كان خلية من الفوضى والارتباك : مسافرون يروحون ويغدون ، موظفون يدخلون ويخرجون ، حمالون يذهبون ويجيئون والطائرات مرصوصة على أرض المطار ، مكدسة متزاحمة ، اذ كان هناك تأخير في مواعيد السفر بسبب الضباب.

وقال لها موظف الاستعلامات :

– مستحيل يا سيدتي ان تسافري على الطائرة التي سبق ان حجزت لنفسك

فيها مقعدا ، فأرجوك ان تنتظري في قاعة الاستراحة حتى يخلو مقعد في طائرة أخرى .

وعلى ملل مضت الى قاعة الانتظار ترقب مقعدا يخلو .

وبعد ساعة قيل لها ان هناك مقعدا خاليا بالطائرة المسافرة الى داكار ، وفي الطريق اليها تهبط في كازابلانكا وان كانت سوف تصل اليها متأخرة ثلاث ساعات عن الموعد الذي كانت ترجوه .

قال الموظف : هذا كل ما استطيع فعله لأجلك يا سيدتي .

وتقبلت هيلاري كرافن المقعد المعروض عليها بغير تذمر واحتجاج ، دون ان تتشبث بالمقعد الذي سبق ان حجزته على الطائرة الى كازابلانكا الأصلية .

وحين هبطت في كازابلانكا همس الحمال الذي أخذ حقائبها :

ـ انك لمحظوظة يا سيدتي ان اتيت بهذه الطائرة الاضافية بدلاً من طائرة كازابلانكا الأصلية التي كان مفروضا ان تصل قبل هذه، فإنها تحطمت ومات طاقمها ومعظم الركاب ، فلم يبق منهم على قيد الحياة الا أربعة أشخاص او خمسة نقلوا الى المستشفى مصابين باصابات جسيمة .

وكان اول رد فعل في نفسها ان طغى عليها شعور جارف بالغضب وعلى غير وعي منها اصطخب داويا في رأسها هذا السؤال :

ـ يا الهي !. لم لم أكن انا في هذه الطائرة ؟ لو اني كنت فيها لانتهى كل شيء !. لا قلق ولا أحزان ولا هموم !. ألا ليتني كنت فيهــا ؟. ان الذين استقلوا هذه الطائرة كانوا متشبثين بالحياة ، أما انا فلكم كنت أرحب بالموت.

وأنهت إجراءاتها الجمركية في دقائق قليلة ، ومضت الى احدى سيارات التاكسي ذاهبة الى فندقها .

وفي غرفتها فتحت النوافذ وأطلت على المدينة .. كانت السماء صافيــة زرقاء والشمس مشرقة فياضة بالضوء .

كان هذا ما ترجوه .. كانت هذه هي الحياة التي سعت اليها .. الفرار .. الهرب ، بعيدا عن انجلترا .

بيد انه في هذه اللحظة اعتصرت قلبها يد باردة ساحقة ، فقد أدركت في صدمة هزت كيانها ان الأمر هنا لا يختلف عما كان في انجلترا : لا مهرب ولا فرار !.

كان قبر بريندا في انجلترا ، وتايجل سوف يتزوج امرأة جديدة في انجلترا . فلماذا توهمت انها سوف تنسى هذا وهي هنا في مراكش ؟

ان الذكريات تلاحقها ، والماضي يجري في أعقابها ، ولا شيء يمكن ان يجعلها تنسى .

ان الخلاص الوحيد في حبوب منومة تفرغ منها في أحشائها قنينة كاملة .

وانبعثت واقفة وقد استقر رأيها على ان تبادر الى الصيدلية ، ففيها شفاؤها من المتاعب والهموم والأحزان .

ومضت الى الخارج مسرعة كي تعود بما يجعلها تنام ، تلك النومة الأبدية المريحة التي تهفو اليها .

* * *

كانت هيلاري كرافن ، تعتقد ان من السهل شراء الحبوب المنومة في البلاد الأجنبية . ولكنها ، لدهشتها ، ما لبثت ان أدركت انها كانت مخطئة في ظنونها .

فقد رفض الصيدلي ان يزودها الا بحبتين اثنتين ، وان لها ان شاءت المزيد ان تأتيه بتذكرة طبية .

فشكرته هيلاري ودست في حقيبتها الحبتين . وفيما هي تغادر الصيدلية

كادت تصطدم برجل طويل القامة، جاد السمات، فاعتذر لها بادب بالانجليزية. وسمعته وهي تنصرف يسأل الصيدلي عن معجون أسنان .

وأحست بغصة انقبض لها قلبها ، فقد كان المعجون الذي طلبه من نفس الماركة التي يؤثر نايجل استعمالها .

وعبرت الطريق إلى الصيدلية المقابلة ، وأتبعتها بغيرها حتى اكتملت أربعاً ولفت نظرها ان لمحت في الصيدلية الثالثة نفس الرجل الجاد السمات ذا الوجه الشبيه بوجه البومة ، وكان يسأل عن نفس معجون الأسنان الذي طلبه في الصيدلية الأولى .

وعادت هيلاري إلى فندقها ، فأبدلت ملابسها ونزلت تتناول العشاء وقد كادت القاعة تقفر من النزلاء ولكنها لمحت رجل معجون الأسنان ، جالساً إلى مائدة ملاصقة للجدار يتناول طعامه وقد نشر أمامه صحيفـــة فرنسية ، واستغرق في قراءتها .

وأمرت لنفسها بطعام شهي وزجاجة من النبيذ ، وأقبلت تأكل وتشرب بنهم وهي تردد في نفسها .

– وبعد فتلك هي المغامرة الأخيرة ثم ينتهي كل شيء .

وصعدت إلى الغرفة وقد فرغت من الطعام، فأغلقت الباب وراءها بالمفتاح وخلعت ثيابها وتناولت اللفافات الأربع التي أتت بها من الصيدليات ، وفضتها وتناولت منها الحبوب المنومة ، ورصتهـــا على المنضدة أمامها ، ومضت تتأملها بصمت .

لم تكن مترددة ، ولم تكن خائفة ، فذلك هو سبيل الخلاص .. ذلك أخيراً هو الفرار . الفرار الحقيقي .

والأمر بعد هين بسيط : تبلع الحبوب ، وتزدردها بجرعة من الماء ، ثم تستلقي على الفراش وتنام ثم لا تستيقظ أبداً من النوم .

لم يكن في نفسها من الدين وازع يردهـــا عما هي بسبيله ، فقد أتت

وفاة بريندا على كل ما بنفسها من شعور ديني ، فليس ثمة شيء له عندهـا قيمة أو أهمية .

نعم .. إنها الآن بلا قيد يعرقل خطاها ، متأهبة الشروع في رحلتها إلى المصير المجهول .

ومدت يدها وتناولت الحبة الأولى ، رفعتها إلى فمها . وفي هذه اللحظة طرق باب الغرفة نقرات خفيفة .

قطبت هيلاري جبينها وتجمدت يدها في الهواء قبـــل ان تبلغ فمها . ولكنها لزمت مكانها لا تفتح الباب ، فمهما يكن من أمر فهي لن ترد عليه ، فلا يلبث أن ينصرف .

ولكن الطرقات عادت تدق الباب من جديد ، وفي هذه المرة كانت بصوت أشد وأعلى .

وفجأة اتسعت عيناها دهشة وهما مستقرتان على الباب .

رأت المفتاح الذي في ثقب القفل من الداخل يدور حول نفسه ثم يقفز من ثقبه الى الأرض مرسلاً رنيناً معدنياً ، ثم رأت مقبض الباب يتحرك ويدور ثم انفتح الباب وإذا برجل يدلف إلى الغرفة .

وعرفت فيه على الفور ذلك الرجل الحاد السمات ، الذي رأته من قبـــل مرتين في الصيدلية يشتري معجوناً للأسنان ، ثم رأته يتناول بعد ذلك عشاءه في الفندق .

واستدار الشاب فأغلق الباب وتناول المفتـــاح من على الأرض ودسه في الثقب وأوصده ثم جاء عبر الغرفة اليها واستوى على أحد المقاعد جالساً وقال في بساطة :

– إني أدعى غيسوب

وتضرج وجه هيلاري احمراراً ، ومالت اليه عبر المنضدة التي بينهما ، وفي صوت يخالطه الغضب سألته :

– هل لي أن أسأل عما أتيت تفعله في غرفتي ؟

فحدجها بنظرة طويلة ثاقبة وقال يسأل :

– ما أعجب هذا ! إني أنا الذي أتيت أسألك عما تفعلين أنت في غرفتك ؟.

فحملقت فيه باستغراب وتساءلت :

– إني لا أفهم ما تعني ؟

فأدار رأسه ، يتأمل الحبوب المنومة على المنضدة ، ثم تطلع اليها قائلاً :

– لو انني مكانك لما فعلت هذا ، فليس الأمر كما تظنين .. انك تعتقدين انك تتناولين الأقراص ، وتستغرقين في النوم ، ثم لا تنهضين أبداً ولكن ما سوف يحدث شيء غير هذا تماماً .. فستعانين أعراضاً اليمة .. تقلصات ، وقيء وآلام تمزق المصارين ..

وإذا كانت طبيعة جسمك مقاومة للمخدرات ، فإن الحبوب المنومة لاتبدأ إلا بعد فترة طويلة ، وفي خلال هذه الفترة يعثرون عليك ويحاولون إنقاذك ، وتتعرضين لأشياء مؤلمة ، غسيل معدة زيت خروع قهوة ساخنة كما يهزونك بعنف ويلطمون وجهك حتى تستفيقي ، فهل أنت مستعدة لهذا ؟

وتراخت مسز كرافن في جلستها ، واغتصبت ابتسامة خفيفة ، وقالت :

– يا لها من فكرة سخيفة ! إذن فأنت تتخيل انني كنت أنوي الانتحار ؟

– انني لا أتخيل ، ولكني على يقين . فقد دخلت الى الصيدلية لأشتري معجوناً للأسنان حين كنت هناك تطلبين حبوباً منومة ، ولما لم أجد النوع الذي أبغيه ذهبت الى صيدلية أخرى فإذا بك أمامي تشترين حبوباً للمرة الثانية وبدا لي الأمر غريباً فرأيت ان أتعقب خطواتك لأرى ما يكون من أمرك

وطبعاً لم يكن من العسير علي بعد ذلك أن أتكهن بما تنوين .

– إنك قد تقدر أن تمنعني الآن من الانتحار ، وقد تقذف بالحبوب من النافذة ، ولكنك لن تقدر أن تصدني غداً عن شراء حبوب أخرى أو أن ألقي بنفسي الى الطريق من سطح عمارة عالية ، أو أن أرتمي أمام قطار مسرع .

– انك قد تحاولين ان تنتحري اليوم ، هذا صحيح ولكن إذا جاء الغد ثاب المنتحر الى رشده وعاوده صوابه .. هذا عادة ، ما يحدث للمنتحرين .

– هذا اذا كان المنتحر قد أقدم على فعلته ، وهو في فورة يأس مفاجىء أما أنا فقد تدبرت الأمر في هدوء وبرود حتى استقر عليه عزمي .. ألا تعلم يا مستر غيسوب انني امرأة ليس لديها ما تعيش من أجله ، وما يحملها تتشبث بالحياة .

ثم أردفت :

– زوجي الذي همت به حباً هجرني ، وابنتي الوحيدة التي أعبدها ماتت بالالتهاب السحائي ، وأنا بعد امرأة بلا أصدقاء او أقارب وليس لي هواية تستهويني أو عمل يشغلني ، فلم اذن أعيش ؟

وبعد سكتة قصيرة رفعت اليه رأسها قائلة :

– والآن يا مستر جيسوب هل لك أن تنصرف وتتركني لشأني ؟

– لم يحن الوقت ، فإني لم أفرغ بعد من حديثي .

ثم استطرد على عجل :

– الآن عرفت انك كارهة لدنياك غير متشبثة بالحياة وانك تنوين الانتحار ولكن الذي أتساءل عنه هو: لم آثرت الحبوب المنومة وسيلة للانتحار ؟

فبدت الدهشة في عينيها وتساءلت :

– ماذا تقصد ؟

– لقد عرفنا أن الحبوب المنومة غير مضمونة النتيجة فضلاً عما يصاحبها من آلام ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الارتماء تحت القطار أو القاء نفسك من مبنى مرتفع ، انك قد تصابين بعاهة أو بالشلل أو ببتر ذراعيك أو ساقيك ، ولكنك ستعيشين هناك طرق أخرى للانتحار انجح وأضمن .

– طرق أخرى .

– طبعاً .. طرق أخرى حـــافلة بالاثارة والمتعة ، ومع ذلك فلست أكتمك انك قد تنجحين من الموت ، ولكنك على الأقل ستجدين فيها تسلية وطرافة تشغل فراغك وتبدد همومك .

فهزت رأسها في حيرة وتساءلت :

– الحق اني لا أدري فيم تتحدث .

ولاذ بالصمت برهة .

ثم أردف :

– لكي تدركي ما أبغي لا بد أن أروي لك قصة صغيرة ، فهل لك أن تعيريني سمعك .

– اني مصغية اليك فهات ما عندك .

– انك طبعاً تطالعين الصحف ، ولا بد انك قرأت عن حوادث اختفاء بعض العلماء في الشهور الأخيرة ، وكان آخرها اختفاء عالم الذرة توماس بيلرتون .

فقالت هيلاري :

– نعم ، لقد قرأت شيئاً عنه في الصحف .

واستطرد جيسوب :

– اننا في بلد حر ، ولمن شاء أن يرحل انى شاء ، ولكن في مثل هـذه الظروف يجب أن نعرف لمـــاذا اختفى هؤلاء القوم ، وأين ذهبوا ، وكيف ذهبوا هل اختفوا طواعية واختياراً من تلقاء انفسهم ، ام انهم اجبروا على

الذهاب ، او اختطفوا . او هددوا ، ومـــا هو الطريق الذي سلكوه في سفرهم ، وما هي المنظمة التي تتولى أمرهم ، وما هو الهدف الذي ترمي اليه المنظمة ، اننا نسعى إلى رد شاف على هذه الأسئلة ، ولعل في مقدورك أنت أن تساعدينا على الحصول على جواب على هذه الأسئلة .

ـ انا ، ولكن كيف ، ولماذا .

فقال غيسوب :

ـ منذ شهرين اختفى توماس بيترتون فجأة وهو في باريس، تاركا امرأته في لندن ، وقد نزل اختفاؤه عليها نزول الصاعقة ، او كذلك أدعت وزعمت وقد اقسمت على انه ليس لديها أية فكرة عن مكانه ، وانها لا تعرف من الأمر شيئاً ، وقد تكون صادقة في أقوالها ، أو كاذبة ، وأنا من الذين يعتقدون أنها كاذبة .

وتابع غيسوب الحديث قائلا :

ـ وضعنا مسز بيترتون تحت المراقبة الدقيقة ، ومنذ أسبوعين جاءت تزورني في مكتبي ، وذكرت لي أن طبيبها امر بأن تسافر إلى الخارج للراحة والاستجمام لأنها ضاقت بأصدقائها وأقاربها والخبرين الصحفيين الذين لا يفتأون يلحون بالسؤال عن زوجها وكيف اختفى ، حتى لقد كادت تصاب بانهيار عصبي .

وبالأمس غادرت مسز بيترتون انجلترا الى كازابلانكا .

فقالت متبرمة :

ـ ولكن ما شأني أنا بكل هذه القصة .

فأجابها غيسوب باسماً :

ـ إن لك شأناً كبيراً لأن شعرك احمر .

ـ ماذا تقصد .

ـ اهم ما يميز مسز بيترتون هو شعرها الأحمر النحاسي ، وأهم ما يميزك

انت ايضاً نفس الشعر الأحمر النحاسي .

ـ فليكن ، مجرد صدفة ، ولكن ما اهمية ذلك .

ـ اهميته ان طائرة كازابلانكا التي سافرت فيها مسز بيترتون تحطمت وقتل معظم من فيها ، اما هي فأخرجت من تحت الأنقاض ، وما تزال على قيد الحياة ونقلت الى المستشفى ، ولكن الأطباء يرون انها لن تعيش إلا حتى صباح الغد .

وظلت هيلاري تتابعه بعينين تتساءلان عما يبغي منها .

واستطرد غيسوب :

ـ غداً ستلفظ مسز بيترتون أنفاسها الأخيرة ، ولكنها مع ذلك ستواصل رحلتها لأنك ستتقمصين شخصيتها ، وتنتحلين اسمها .

وظلت هيلاري تحملق فيه كالمشدوهة فاغرة فمها .

ثم قالت :

ـ ولكنهم طبعاً سيعرفون في الحال أني لست مسز بيترتون ؟

ـ هذا يتوقف على الذين سيقابلونك ، وهل سبق أن رأوا مسز بيترتون من قبل ؟ إن مثل هذه المنظمات تعمل عادة على أساوب الخلايا المستقلة ، فكل خلية مكونة من ثلاثة أو أربعة أشخاص لا يعرفون الخلية الأخرى ، حتى إذا وقعوا في يد الشرطة استحال عليهم أن يشوا بالآخرين ، لأنهم لم يروهم من قبل .

ثم استطرد :

ـ ومعنى هذا أن الذين سوف تلتقي بهم مسز بيترتون لا يعرفون عنها إلا انها ذات شعر أحمر نحاسي ، وعينين زرقاوين خضراوين ، وطولها خمسة أقدام وسبع بوصات ، وليست لها علامات مميزة ، هذه هي الأوصاف المدونة في جواز سفرها ، من حسن الحظ ، أن هذه الأوصاف جميعاً تنطبق عليك .

فقالت معترضة :

– ولكني لا أكاد أعرف شيئاً عن مسز بيترتون

– سنزودك بما يكفي من المعلومات ، وسندبر الأمر على النحو التـالي : ستدخلين المستشفى ، وعندما يحم القضاء وتموت مسز بيترتون ستحلـين مكانها وتنتحلين اسمها ، اما هي فتدفن متخذة اسمك انت أي سيقال أن التى ماتت هي بارنجاج في المخ في كارثة الطائرة ، وهذا يتيح لك فرصة التخلص من المأزق التي قد تقعين فيها بأن تتظاهري بفقدان الذاكرة من حين لآخر . ومع ذلك فقد ينكشف سرك وتقتلين ، ولكني لا أحسبك تبالين بالموت ما دمت لا تقيمين وزناً للحياة وتنشدين الانتحار ، فما رأيك ؟ أتقبلـــين هذه المهمة ؟

ودون تردد أجابت هيلاري كرافن :

– ولم لا ؟ لقد قبلت أن أكون مسز بيترتون .

فقال غيسوب :

– إذن هيا بنا فلا وقت لدينا نضيعه .

الفصل الرابع

على مقعد حديدي صلب جلست هيلاري كرافن بجانب الفراش الذي ترقد عليه وليف بيترتون ، معصوبة الرأس بالضمادات ، غائبة عن الوعي .

وعلى الناحية الأخرى من السرير وقفت إحدى الممرضات والطبيب يتأملان المصابة .

أما غيسوب فكان جالساً في ركن من الغرفة .

وتحول الطبيب إلى غيسوب قائلا بالفرنسية :

ـ لن يطول الأمر ، فإن النبض ضعيف جداً ، ولكن هل تموت قبل أن تسترد وعيها ؟

ـ هذا ما أستطيع أن أقطع به .. ربما استردت وعيها في اللحظات الأخيرة .

ـ ألا تستطيع أن تعطيها منبهاً ؟

وهز الطبيب رأسه نفياً .. وغادر الغرفة والممرضة في أعقابه .

وقال غيسوب يخاطب هيلاري كرافن .

ـ لكم كنت أتمنى أل تسترد وعيها ولو لحظات حتى أحصل منها على شيء من المعلومات ، أي شيء مجرد كلمة عابرة . مجرد إشارة أو كلمة السر . حاولي أن تنصتي اليها جيداً ، وإذا تكلمت فحاولي أن تستدرجيها ،

فقد تنطق بشيء حتى في غيبوبتها .
فسألته :
– وهل نصارحها بأنها تحتضر وإنها لن تعيش ؟
– لا أدري .. يجب أن أفكر في هذا .

* * *

مضت هيلاري تتأمل المرأة الراقدة على الفراش ..
ترى هل جاءت حقاً إلى مراكش لتقابل ذلك الزوج الذي اختفى ؟
أم إنها كانت موشكة على الانهيار فجاءت تنشد الراحة والاستجمام ؟
ومر الوقت ، حتى انقضت ساعتان ، ثم فتح الباب وجاء الطبيب يعود مريضته مرة اخرى .
جس نبضها .
ثم قال :
– هناك بعض التغيير ، وإن كان كل شيء يوشك أن ينتهي .
وتململت المريضة في فراشها قليلاً ، وفتحت عينيها لتجد نفسها تتطلع مباشرة في عيني هيلاري .
ثم عادت وأطبقتها من جديد .
وهمست في صوت لا يكاد يبين :
– اين أنا ؟
وفي رفق أخذ الطبيب بيدها وأجاب :
– انك في المستشفى يا سيدتي ، لقد وقع حادث الطائرة .
فردت هامسة :
– الطائرة :

وسألها الطبيب :

– أتريدين أن تتصلي بأي شخص هنا في كازابلانكا ؟ إننا نستطيع أن نبلغه أية رسالة منك .

فرفعت إلى الطبيب عينين باديتي الألم وردت :

– لا .

ثم عادت من جديد إلى هيلاري وتساءلت :

– من ، من أنت ؟

ومالت هيلاري فوقها ، وفي صوت جلي واضح النبرات قالت :

– إني قادمة لتوي من انجلترا على إحدى الطائرات ، فإذا كان في وسعي أن أفعل شيء لأجلك فأخبريني على الفور .

– لا .. لا شيء .. إلا إذا .

وصمتت وتطلع الطبيب إلى المرأتين ، ثم مضى يغـــادر الغرفة ، وفي أعقابه الممرضة .

وخلت المرأتان كل إلى صاحبتها ، وبدا أن مسز بيترتون تجاهد لكي تنطق بشيء ، فقالت :

– أخبريني . أخبريني .. هل ؟. هل ؟.

وأدركت هيلاري دون عناء ما تسأل عنه مسز بيترتون فأجابت :

– نعم .. إنك تحتضرين .. أهذا هو ما تريدين أن تسألي عنه ؟ والآن سأحاول أن أتصل بزوجك ، فهل تريدين إبلاغه رسالة منك ؟

فردت المرأة التي تحتضر :

– أخبريه . أخبريه . أن يكون على حذر .. بوريس .. بوريس .. بوريس شخص خطر .

وتســارعت أنفاسها لاهثة ، وتنهـدت .. ومالت هيلاري فوقهـا تسألها :

– أيمكنك أن تذكري لي شيئاً يساعدني في رحلتي . أي شيء يمكنني من الاتصال بزوجك ؟

– الثلج .

واستبدت الحيرة بهيلاري ، وجعلت تردد الكلمة في دهشة :

– الثلج ؟. الثلج ؟

ومضت تكررها تباعاً دون أن تفقه المقصود منها .

فلاحت على شفتي المحتضرة إبتسامة واهنة ، ثم ضحكت ضحكة مخنوقة لا تكاد تسمع ، وانفرجت شفتاها عن أغنية شائعة من أغنيات الطفولة :

« الثلج ، الثلج ، الثلج الجميل .. »

« تدوسين على قطعة منه ، وتتزلقين .. »

« ثم تذهبين .. تذهبين .. »

وأخذت المحتضرة تردد بصوتها الواهن الضعيف :

– تذهبين ؟. تذهبين ؟. إذهبي وحدثيه عن بوريس .. إني لا أصدق هذا .. لا أستطيع أن أصدق ، ولكن ربما كان صحيحاً .. وإذا كان فيجب أن .. يكون على حذر .

فاختلجت العينان ، واختلجت الشفتان ، وماتت أوليف بيترتون .

* * *

كانت الأيام الخمسة التالية أياماً مضنية مرهقة .

لزمت هيلاري كرافن في المستشفى غرفة خاصة لا تبرحها ، منهمكة في تلقي دروسها ، وفي كل مساء تمتحن فيما لقنته طوال ساعات

النهار .

على ورقة أمامها سطرت كل المعلومات التى يعرفونها عن حياة أوليف بيترتون ، وكان على هيلاري أن تعيها في ذاكرتها ..

المنزل الذي كانت تسكنه أوليف .. الخدم الذين عملوا لديها ، أسماء الأقارب والأصدقاء واسم كلبها المدلل وطائر الكناريا .. كل التفاصيل الخاصة بحياتها ، خلال الستة شهور الماضية ، منذ تزوجت .. حفلة القران ، وأسماء الوصيفات .. ما الذي كانت تفضله مسز بيترتون من طعام وشراب .

وضاقت مسز هيلاري كرافن بكثرة ما لقنت .

فسألت جيسوب :

– وهل لهذا كله أهمية؟

– ربما نعم ، ربما ، ولكن ينبغي أن تكوني متأهبة لكن المفاجآت ، فقد تباغتين بسؤال ، أي سؤال ، فيجب أن يكون الرد حاضراً ، دون أي تفكير أو تردد .

وأخذ يلقنها دروساً في الشفرة ، وفي الكتابة السرية ، وفي وسائل الاتصال الخفية.

وأخيراً أبدى جيسوب رضاه وارتياحه قائلا :

– إنك في الحق تلميذة نجيبة ، يمكن الركون اليها .. إنني أحب ان أذكر لك انك لن تكوني منعزلة عنا .. فسوف نكون أتبع لك من ظلك معظم الأوقات

وتساءلت هيلاري :

– وماذا يكون من أمري عندما أبلغ نهاية المطاف .. أي عندما أرى نفسي وجهاً لوجه أمام توماس بيترتون ؟

فهز جيسوب رأسه بجدية وقال :

– هنا موضع الخطر ؟. إذا سارت الأمور على الصورة التي نتخيلها فإننا سنكون بجانبك ، نحميك ونذود عنك .

ولكن يجب أن أذكرك بما سبق أن قلته لك ، وهو ان المخاطرة هي أساس هذه المهمة ، فمن المحتمل أن ينكشف أمرك ، فيكون القتل مصيرك .

ثم أردف :

– بعد خروجك من المستشفى ، ستنزلين في نفس الفندق الذي حجزت فيه مسز بيترتون غرفة لها ، وسوف ترتدين ملابسها ، وتنسقين شعرك على الطراز الذي اعتادته .

وقد عهدنا إلى طبيب من أطباء التجميل أن يدرس وجهك وان يلصق عليه بعض رقائق من البلاستيك ، تجعلك أدنى شبهاً إلى أوليف بيترتون .

وحتى إذا فطن أحد إلى التحامها ، فسوف يعزو هذه الآثار إلى حادث الطائرة .

وتأملته هيلاري بنظرة تقدير وإعجاب وقالت :

– الحق انك دقيق في عملك لا تغفل شيئاً .

– هذا واجبي ، لأن أتفه الهنات كفيلة بأن تفسد أدق التدبيرات . والآن أرجو ان تقصي علي ما حدث بينك وبين أوليف بيترتون . هل لفظت شيء قبل أن تموت ؟

وروت له ما سمعته من المرأة التي كانت تحتضر وقالت :

– وأهم ما رددته هو قولها « قولي له ان بوريس شخص خطر » .

فقال جيسوب :

– بوريس ؟. لا بد إذن انها تقصد الميجور بوريس جلايدر فقد زارني في مكتبي زاعماً انه ابن عمة زوجة بيترتون الأولى ، وإن لم أكن متأكداً من

حقيقة شخصيته .. وقد أمرت بتعقبه عند خروجه من مكتبي ، فذهب لتوه إلى السفارة الأمريكية ، ثم لم يخرج منها ، ويبدو انه تسلل من أحد الأبواب الخلفية .

فقالت هيلاري :

- هل لك أن تصفه لي؟

فأدلى اليه بأوصافه ، ثم أردف :

- صدقت مسز بيترتون ، فالماجور بوريس جلايدر شخص خطر

الفصل الخامس

في قاعة الاستقبال في فندق سان لويس في كازابلانكا جلست ثلاث سيدات كل منهن منهمكة بشأن يخصها .

فالأمريكية مسز كالفين بيكر جالسة إلى مكتب صغير مقبلة على تسطير بعض الرسائل .

والانجليزية مس هيدرنجتون متراخية في مقعد ضخم ، وبين يديها إبرة التريكو تطرز جاكته من الصوف من النوع الذي تألف السيدات الإنجليزيات ارتداءه .

أما الفرنسية مدموازيل جين ماريكو ، فكانت تجلس بجانب احدى النوافذ ، تنظر الى الخارج ، وهي تتثاءب من حين لآخر أو تدير بصرها الى المرأتين بضيق وملل .

وكانت مس هيدرنجتون ومسز بيكر قد أمضيتا بضع ليال تحت سقف فندق سان لويس ، فتم بينهما التعارف ، وذلك ان مسز كالفين بيكر بسجيتها الأمريكية المتآلفة كانت لا تفتأ تتحدث الى أي انسان بسماحة وانطلاق .

وبرز في مدخل القاعة فرنسي تبدو عليه سمة رجال الأعمال ، ثم ارتد عنها راجعاً حين رآها تكاد تبدو خالية وقد ألقى على جين ماريكو

نظرة أسف .

فأخذت مس هيذرنجتون تمد الغرز الذي طرزتها ، ثم همست تخاطب نفسها :

ـ والآن ما هو نوع الغرزة التالية ؟

ووصلت إمرأة أخرى ، طويلة القامة حمراء الشعر ، فأطلت على الغرفة ، وبدا عليها التردد قليلاً ، ثم استدارت تسير في الممشى إلى قاعة الطعام .

فانتبهت مسز كالفين ومس هيذرنجتون مما كانتا فيه ، ودارت مسز بيكر حول المكتب الذي كانت تجلس اليه ، وهمست في صوت به رنة من الانفعال :

ـ أرأيت يا مس هيذرنجتون هذه المرأة ذات الشعر الأحمر ، التي أطلت على الغرفة ثم انصرفت ؟ إنهم يقولون إنها الوحيدة التي نجت من كارثة الطائرة التي سقطت في الأسبوع الماضي .

وقالت مس هيذرنجتون :

ـ لقد شاهدتها تأتي بعد ظهر اليوم إلى الفندق في عربة الإسعاف .

ـ قد أخبرني المدير أنها وصلت من المستشفى رأساً .

ثم أردفت :

ـ ترى هل من الحكمة أن تخرج من المستشفى بمثل هذه السرعة وهي التي كانت مصابة بارتجاج في المخ ؟

فقالت الأخرى :

ـ إن ببعض أجزاء وجهها شريطاً لاصقاً من أثر إصابتها بالزجاج المهشم فيما أظن . إنها لمحظوظة إن نجت من الحريق .

فقالت مسز كالفين :

ـ يا لها من مسكينة عانت الأهوال ترى هل كان زوجها معها ؟ وهل

لقي حتفه أم نجا من الموت ؟

– لا أظن ، فقد ورد في الصحف انه لم ينج من ركاب الطائرة إلا امرأة واحدة دون أن يشيروا إلى أن زوجها كان بصحبتها .

– هذا صحيح ، وقـــالوا انها تدعى مسز بيفرلي . كلا ، كلا ، بل مسز بيترتون .. نعم ، هذا هو اسمها .

فقالت مس هيذرنجتون وهي تفكر متأملة :

– بيترتون ؟ آه ، هذا يذكرني بما قرأته عنه في الصحف ، نعم إني متأكدة من ان هذا هو اسمه .

وقالت الآنسة ماريكو تخاطب نفسها بالفرنسية :

– ألا تبا لبيير ! إنه لا يحتمل ولا يطاق ! لكن الصغير جولز لطيف ، والأب ذو مركز مرموق فليكن ! لقد اتخذت قراري .

وفي خطى رشيقة متأنقة غادرت مدموازيل ماريكو قاعة الاستقبال .

* * *

بعد ظهيرة ذلك اليوم الذي ماتت فيه مسز بيترتون ، وكانت قد مرت خمسة أيام على كارثة الطائرة ، خرجت مسز توماس بيترتون المزعومة من المستشفى مستقلة إحدى سيارات الإسعاف إلى فندق سان لويس ، وهي تبدو شاحبة الوجه عليلة ، تدور بوجهها الضمادات والأربطــة والشريط اللاصق .

واتصلت هيلاري باستعلامات الفندق وسألت عما إذا كانت هناك رسائل باسمها فأجيبت بالنفي .

كان عليها وهي تنتحل شخصية أوليف بيترتون أن تتصرف بحرص وحذر

وأن لا تقدم على أية خطوة إلا بعد تأن وروية .

إن من المحتمل ان تكون أوليف بيترتون قد تلقت تعليمات بأن تتصل بتليفون معين أو شخص معين في كازابلانكا ، فأنى لها أن تهتدي إلى ذلك ؟

إن كل ما لديها لا يعدو جواز سفر أوليف بيترتون ، وخطابها الخاص بالاعتماد المالي ، ودفتر تذاكر السفر الصادر من شركة كوك السياحية ، وإخطارات الحجز بالفنادق ، وهذه عبارة عن يومين في كازابلانكا ، وستة أيام في فزان ، وخمسة أيام في مراكش .

وطبعاً انقضت هذه الأيام وفات موعدها بسبب حادث الطائرة ، لكن لا بد أن هناك من سيجددها مرة أخرى ، فعليها أن تنتظر وتترقب . أما خطاب الضمان المالي وجواز السفر فقد تولى أمرهما مستر جيسوب ، فذيل الخطاب بتوقيع مزور لأوليف بيترتون ، ونزعت من الجواز صورة اوليف وحلت مكانها صورة هيلاري كرافن .

وهكذا استقر الأمر لهيلاري كرافن وعليها ان تؤدي دورها باطمئنان ، وإذا ألفت نفسها موشكة أن تنزلق إلى مأزق ، فليس أسهل من أن تتشبث بطوق النجاة ، فتزعم انها فقدت ذاكرتها ، أو بعض ذاكرتها ، نتيجة لإصابتها بارتجاج في المخ .

ولاذت هيلاري بغرفتها أربع ساعات كاملة إذ المفروض لمن كان في مثل حالتها لم يغادر المستشفى إلا منذ لحظات ان يستريح ويستجم . ولكنها خلال هذه الساعات جعلت تستعيد إلى ذهنها كل ما لقنته عن حياة أوليف بيترتون من دقائق وتفصيلات حتى لا تفاجأ بسؤال تعييها الاجابة عليه فتنكشف خدعتها بانتحال شخصية غيرها .

وأخيراً تجملت قليلاً ونزلت إلى قاعة الطعام لتناول العشاء .

وما ان تراءت في مدخل القاعة حتى انتهبتها الأنظار من كل صوب وفطنت

إلى همسات خافتة ترددت في أرجاء القاعة ، بل قد تبادرت إلى سمعها بعض العبارات ترددها الحاضرات .

وأتت إمرأة قصيرة القامة ، متوسطة العمر ، تميل الى البدانة ، وسحبت مقعداً أدنته منها وأنشأ تكلمها بلهجة أمريكية واضحة :

– معذرة إن طرحت عليك سؤالاً . الست انت السيدة التي نجت بمعجزة من كارثة الطائرة ؟

ونحت هيلاري المجلة التي كانت تتصفحها وردت :

– نعم .

– يا الهي ! كانت كارثة رهيبة ! يقال ان ثلاثة فقط هم الذين نجوا من الحادث ، اليس كذلك ؟

– بل اثنان ، فقد مات احد الثلاثة في المستشفى .

– رباه .. اني لم أسمع بهذا بعد يا مس يا مسز .

فقالت هيلاري :

– مسز بيترتون .

وتابعت الأمريكية تسألها :

– لكن أين كان مقعدك عند وقوع الحادث ؟ اعني في مقدمة الطائرة ام عند ذيلها ؟

وكانت هيلاري قد لقنت الرد على هذا السؤال وهي تتلقى دروس المعلومات التي قد تحتاج اليها في انتحال شخصيتها الجديدة ، فردت :

– بل في المؤخرة .

– انهم يقولون ان هذا اسلم مكان في الطائرة اذا ما وقع لها حادث . اني دائماً اصر على الجلوس في المؤخرة .

ونظرت الى سيدة اخرى متوسطة العمر انجليزية السمات تجلس بقربها ، فقالت تخاطبها :

- أسمعت هذا يا مس هيذرنجتون ؟. تماماً كما كنت اقول لك بالأمس .
يجب ان تصممي على الجلوس فيمؤخرة الطائرة مهما حاولت المضيفة ان تغريك بالجلوس في المقدمة .

فردت هيلاري ببساطة :

- ولكن لا بد للبعض ان يجلس في المقدمة .

- على أية حال لن اكون انا من هذا « البعض » .

ثم اردفت :

- اني ادعى مسز بيكر .. كالفن بيكر ، اني امريكية الجنسية ، وقد وصلت لتوي من مؤ كادور ، اما مس هيذرنجتون فجاءت من طنجة ، وقد تم التعارف بيننا هنا .. ترى هل تنوين السفر الى مراكش ، يا مسز بيترتون ؟

فردت هيلاري :

- هذا فعلاً ما كنت انوي ، ولكن الحادث افسد الترتيبات .

- طبعاً . طبعاً .. لكن يجب الا تفوتك زيارة مراكش .. الا تقريني على هذا يا مس هيذرنجتون ؟

فردت مس هيذرنجتون ·

ولكن مراكش باهظة التكاليف وقيود تحويل النقد تزيد الأمر صعوبة ومشقة .

فأكملت مسز بيكر :

- ان فندق « المأمون » من الفنادق الفاخرة فيمكنك ان تنزلي فيه .

فانبرت مس هيذرنجتون تقول معترضة :

- لكن اسعاره مرتفعة لا تحتمل ، ولا يمكن ان يخطر لي ان انزل فيه ، اما انت يا مسز بيكر فالأمر بالنسبة اليك يختلف اذ لا قيود عليكم معشر الأمريكيين في تحويل ما تشاءون من الدولارات .

فتابعت مسز بيكر متسائلة :

– وهل تنوين يا مسز بيترتون زيارة بلاد اخرى ؟

– في نيتي زيارة فزان ، ولكن لا بـد طبعاً ، ان أجدد الحجز في الفندق .

– طبعاً . فزيارة فزان او الرباط ينبغي ان لا تفوتك .

– وهل سبق لك زيارتها ؟

– ليس بعد ، ولكني ذاهبة اليها قريباً وكذلك مس هيذرنجتون .

وقالت مس هيذرنجتون :

– اعتقد ان الحي القديم لا يزال على حاله لم تفسده المدنية .

واستمر الحديث على هذا النحو برهة من الوقت ، ثم استأذنت هيلاري في الانصراف متذرعة بالتعب ، إذ كان هذا هو أول يوم غادرت فيـه المستشفى ، وصعدت إلى مخدعها .

ترى هل كانت هذه الأسئلة التي وجهتها اليها مسز بيكر مجرد حديث عابر أم استجواباً مقصوراً له هدف مبيت ؟

ومهما يكن فقد قررت هيلاري كرافن أن تمضي في اليوم الثاني إلى شركة كوك وتجدد الحجز في فزان والرباط ، وذلك ما لم يتصل بها أحد العملاء ليلقي اليها بتعليمات أخرى .

وفي اليوم التالي لم تتلق أي خطاب او رسالة تليفونيـة . وما شارفت الساعة على الحادية عشرة حتى كانت في مكتب السياحة متخذة مكانها في الطابور الطويل المصطف أمام الشباك .

وأخيراً حان دورها ، وبدأت تحدث كاتب الحجز عما تبغي ، ولكن رئيسه بادر اليها من وراء مكتبه قائلاً :

– دعيني أولاً أهنئك على نجاتك يا مسز بيترتون . أما عن الحجز فقد نفذت فعلاً تعلياتك التليفونية ، وها هي التذاكر جاهزة .

وتسارعت نبضات قلبها ..

إنها لم تتصل بشركة كوك ولم تعهد إلى أحد بالاتصال بها !. إذن فالترتيبات الخاصة بسفر مسز اوليف بيترتون ، إنما تنظم بمعرفة شخص آخر مجهول .

وقالت :

– لقد أتيت بنفسي لأني خشيت أن يكونوا قد أغفلوا الاتصال بكم .

وفي صباح اليوم التالي كانت مسز هيلاري كرافن في طريقها إلى فزان .

الفصل السادس

خيبت كازابلانكا أحلام هيلاري كرافن ، فقد بدت أشبه ببلدة فرنسية الطابع ، ليس فيها شيء من نسمات الشرق السحرية التي كانت تهفو اليها .

فأخذ تنظر من نافذة القطار إلى الأراضي المنبسطة أمامها ، وهو منطلق عبر السهول ناحية الشمال .

ولم يكن في المقصورة عداها إلا أربعة أشخاص فرنسي يجلس قبالتها ، وله طابع الوسطاء المتجولين ، وراهبة منزوية في أحد الأركان وأصابعها تجري على مسبحتها ، وامرأتان مراكشيتان تتسامران في مرح وغبطة .

وحين تناولت هيلاري سيجارة من علبتها سارع الفرنسي يشعلها لها ، وكان ذلك بداية وصلت الحديث بينهما .

وقال لها الفرنسي فيما قال :

– ينبغي يا سيدتي أن تزوري الرباط . إنها رائعة ، ومن الخطأ أن تفوتك مشاهدتها .

فقالت ،

– سأحاول ، وإن لم يكن في الوقت متسع .

ثم أردفت وقد لاحت على شفتيها إبتسامة خفيفة :

ـ وفضلاً عن هذا فإن نقودي وشيكة على النفاذ. إنك تعلم انهم لا يسمحون لنا بأن نأخذ معنا إلى الخارج إلا القليل .

فقال :

ـ ولكن ، هذا أمر سهل ، يا سيدتي ، يمكنك تدبيره مع أي صديق لك هنا .

ـ أخشى اني لا أعرف أحداً في مراكش .

فقال في سماحة :

ـ في رحلتك التالية حسبك أن تبعثي إلي بكلمة صغيرة فأدبر لك الأمر ، وهاك بطاقتي .. إنني أسافر إلى إنجلترا كثيراً فيمكنك ان توفيني هناك ما أعطيه لك ..

ـ شكراً لك يا سيدي ، فإني أفكر فعلاً ، في ان أزور مراكش مرة أخرى .

ـ لا شك انك وجدت مراكش مختلفة تماماً عن انجلترا فجوها كريه ، شديد البرودة مغلف بالضباب .

ثم استطرد :

ـ لقد تركت باريس منذ ثلاثة أسابيع ، وكانت هي الأخرى غارقة في الضباب والأمطار ، أما هنا فالشمس دائماً مشرقة رائعة .. وإن كان الجو بارداً إلى حد ما .. كيف كانت حالة الجو ، عندما غادرت انجلترا ؟

فردت هيلاري :

ـ ضباب خانق .

ـ تماماً .. تماماً .. فهذا هو موسم الضباب . وكيف كانت حالة الثلج ؟ ألم يسقط عندكم هذا العام ؟

وتساءلت هيلاري في نفسها عما إذا كان هـــذا الفرنسي يتبع الأسلوب

الانجليزي التقليدي ، فيدور حديثه عن الجو ، أم انه يهدف إلى شيء آخر حينما أشار إلى « الثلج » ، وهي نفس الكلمة التي رددتها اوليف بيترتون قبيل ان تلفظ أنفاسها الأخيرة ؟. هل « الثلج » وقد رددها مرتين كلمة عارضة ، أم رمز خفي ؟.

وتوقف بهم القطار أخيراً في فزان وقد هبط الليل ، وبادر الفرنسي يحمل عنها حقيبتها ، وسألها :

– أذاهبة أنت يا سيدتي إلى فندق « قصر الجمال » ؟

فردت بنعم ، فاستطرد :

– إنه يبعد عن المدينة ثمانية كيلومترات .

فقالت في دهشة :

– ثمانية كيلومترات ؟ إذن فهو في ضواحي المدينة .

– إنه في الحي القديم ، أما أنا فسأنزل في أحد فنادق المدينة التجارية الجديدة ، ولكن على من ينشد الراحة والهدوء والاستجمام ان يهرع الى « قصر الجمال » . فقد كان هذا القصر مقاماً لإحدى الأسرات المراكشية النبيلة ، ثم تحول إلى فندق وهو يتميز بحدائقه الواسعة الرائعة كما انه مجاور للحي القديم ذي الطابع الشرقي الخلاب .

ثم أردف :

– يبدو ان الفندق لم يوفد أحداً لاستقبالك ، فاسمحي لي ان أستدعي لك تاكسياً .

– شكراً لك ياسيدي

وتحدث الفرنسي بالعربية مع أحد الحمالين ، وشيعها حتى استقرت في السيارة ، ثم قال لها :

– إن بطاقتي معك يا سيدتي ، فإذا احتجت شيئاً ، فلا تترددي في الاتصال بي .. إني نازل في فندق « جراند أوتيل » ، ولن أسافر إلا بعد

أربعة أيام .

ورفع قبعته يحييها ، وانطلق بها التاكسي .

وتناولت هيلاري بطاقة الفرنسي لتقرأ اسمه :

« هنري لوربيه » .

وخرج بها التاكسي إلى ضواحي المدينة يشق الطرقات الريفية ، وحاولت هيلاري النظر من النافذة ، ولكن الظلام كان سائداً يحول دونها وان تتبين معـــالم الطريق . فيما عدا بعض أبنيـــة متناثرة ، كان الضوء يشع منها .

وتزاحمت الخواطر في ذهنها وتدفقت وأخذت تسائل نفسها :

– ترى أمن هنا تبدأ رحلتها إلى المصير المجهول ؟ وهل مسيو هنري لوربيه عميل سري من عملاء المنظمة ؟

وهل يكون هو الذي أغرى توماس بيترتون بأن يتخلى عن عمله ويهجر زوجته ويرحل عن وطنه ؟ ثم إلى اين يمضي بها هذا التاكسي ؟

ولكن التاكسي ما لبث إن توقف بها امام فندق « قصر الجمال » فانتزعها من دوامة خواطرها المتضاربة الصاخبة .

نزلت من السيارة ودخلت الى الفندق تشق طريقها وسط جو شرقي أصيل فالثريات من النحاس المشغول ، والأرائك والوسائد بدلاً من المقاعد متناثرة بألوانها الزاهية البراقة ،والموائد في جميع الأركان وفوقها صواني القهوة والأقداح اما غرفتها فكانت مزودة بكل وسائل الراحة العصرية .

ابدلت هيلاري كرافن ثيابها ، ونزلت الى قاعة المائدة لتنـــاول العشاء ، وكان الطعام شهياً طيب المذاق .

ودارت ببصرها في أنحاء القاعة تستجلي وجوه الحاضرين ، وتنظر إلى الداخلين والخارجين .

واسترعى نظرها كهل ذو لحية صغيرة مدببـــة ، إذ كان الجرسونات ،

جميعاً ، يهرعون اليه مهرولين لأضأل إيماءة يبديها من رأسه او اصبعه او حتى من حاجبه .

فأخذت تسائل نفسها عمن يكون هذا الرجل ذو الشخصية المرموقة .

والى مائدة اخرى وسط القاعة كان يجلس رجل الماني ، كما كان هناك كهل تجالسه فتاة على غاية من الجمال تراءى لهيلاري انها لا بد ان تكون سويدية او هولاندية . كما كانت هناك اسرة انجليزية معها طفلان ، وكذلك تناثرت حول الطاولات الأخرى جماعـــة من الأمريكيين ، وثلاث من الأسرات الفرنسية .

وما ان فرغت هيلاري من العشاء حتى خرجت الى الشرفة لتناول القهوة. وكان الجو بارداً ، فسرعان ما لاذت بمخدعها .

وفي الصباح عادت الى الشرفة ، والشمس تغمر الأرض بالضوء واشعتها التي تبعث الدفء ، فاتخذت مكانها تحت مظلة تقيها الحرارة المتوهجة .

وجاءت السويدية الشقراء فجلست الى احدى الطاولات واخذت تتثاءب في ضجر وملل، وقد زوت ما بين حاجبيها، ثم اقبل رفيقها الكهل، وتساءلت هيلاري عما اذا كان زوجها او ابوها .

وحيته الفتاة في وجوم دون ان تبتسم ثم مالت اليه تحدثه في عصبيــة ، وانكمش الرجل وبدا كمن يعتذر اليها .

ثم اقبل الرجل ذو اللحية المدببة ، واتخذ لنفسه مائدة في اقصى الشرفة ، وهرول اليه الجرسون يكاد يركض ، فتلقى اوامره ثم انصرف مسرعاً .

ولمست السويدية الحسناء ذراع رفيقها ، واتجهت ببصرها ناحيــة الكهل الملتحي وغمغمت ببعض الكلمات .

وطلبت هيلاري كأساً من المارتيني وهمست تسأل الجرسون :

— من يكون هذا الرجل الجالس في اقصى الشرفة ؟

فأجاب الجرسون في زهو وخيلاء :

ـ إنه مسيو اريستيد .. انه ثري جداً . من كبار المليونيرات .

وتطلعت هيلاري الى الرجل . هذا العجوز المنكمش في نفسه . هذا المخلوق المغضن الوجه الذي يبدو اشبه بالمهرجين ، الآن خزائنه عامرة بالمال يولونه كل هذا الاهتمام .

ورفع الرجل رأسه ، وتلاقت نظراته بنظرات هيلاري برهة ، ثم ما لبث ان اشاح عنها .

ونهضت السويدية الحسناء ورفيقها ، ودخلا الى المائدة .

ثم رجع الجرسون يحمل كأس المارتيني ، وقال لها وهو امامها على الطاولة .

ـ هذا الشخص الذي مضى الآن الى قاعـــة الطعام .. انه قطب من الصناعة في العالم ، وهو غني جداً . والسيدة التي معه نجمـــة من نجوم السينما .. ويقولون عنها انها « جريتا جاربو » اخرى . انها انيقة جداً ، وجميلة جداً ، ولكنها دائماً تتشاحن معه . لا شيء يعجبها هنا . فقد كرهت فزان حيث لا توجد محال وهي تريد منه ان يذهب بها غداً الى مكان آخر يبعث على التسلية .

ثم اردف :

ـ حتى الأثرياء لا ينعمون بالراحة وهدوء الليل .

وعند هذه الكلمات استدار الجرسون واسرع منصرفاً ليلبي اشـــارة لأحد النزلاء .

وجاء الى الشرفة من البار شاب فرنسي وسيم ، فرمى هيلاري بنظرة طويلة ذات مغزى خفي ، كأنما يقول لها :

ما الذي يدعوك الى البقاء هنا ؟

لم لا تتمشين قليلاً في الحديقة ؟

ثم هبط الدرج الى الحديقة وهو يتمتم بمقطوعـــة من احدى الأوبرات

الفرنسية منشداً :

« وكانت زهور اللوريبه صفوفاً طويلة »

« منتشية تحلم احلاماً جميلة » .

فأيقظت كلماته في نفس هيلاري ذكرى بعيدة .. ذلك الفرنسي الذي التقت به في القطار وقدم اليها بطاقته اما كان يدعى « لوريبه » ؟ وها هوذا هذا الفرنسي يردد نفس الكلمة :

« زهرة لوريبه » !..

فهل ثمة ارتباط بين الأمرين ؟ ام مجرد مصادفة ؟

وفتحت حقيبتها وتناولت البطاقة ..

نعم انه يدعى « هنري لوريبه » ، وعنوانه رقم ٣ شارع كرواسانت ، كازابلانكا .

وجعلت تقلب البطاقة بين يديها وهي ساهمة شاردة .

ثم فطنت الى آثار كتابة متخلفة على ظهر البطاقة ، بعد ان محيت الكلمات .

ورفعت البطاقة الى عينيها في ضوء الشمس ، محاولة ان تتبين آثار اخرى مطموسة غير واضحة .

واخيراً كلمة : « دانتان » .

ومضت تتساءل عما اذا كانت هذه الكلمات ، تنطوي على معنى خفي ؟.

ثم هزت كتفيها يائسة ، ونفضت الفكرة من رأسها ، ودست البطاقة في حقيبتها .

وسقط ظل على وجهها ، فرفعت رأسها مجفلة .

كان مستر أريستيد منتصباً على كثب منها بينها وبين الشمس ، فوقع ظله على وجهها .

بيد انه لم يكن ينظر اليها ، وإنما كان ينظر إلى التلال البعيدة عبر الحديقة .

وسمعته يتنهد ، ثم يستدير فجأة متجهاً إلى قاعـــة الطعام ، فإذا بذراعه تصطدم بكأس المارتيني الموضوع على مائدتها فأطاح به إلى الأرض وتهشم .

وتحول اليها المليونير اليوناني قائلاً بالفرنسية :

– آه !. الف معذرة يا سيدتي .

فتبسمت هيلاري في وجهه ، وأكدت له أن الأمر ليس بذي أهمية . وتلبية لفرقعة خفيفة من إصبعيه جاء الجرسون مهرولاً ، فأمره بأن يجلب للسيدة كأساً آخر ، ثم كرر اعتـــذاره ، ومضى إلى قاعة الطعام .

وعاد الشاب الفرنسي من الحديقة ، وهو ما يزال يترنم مغنياً ، وحين مر بجانب هيلاري تريث في مشيته عامداً .

وإذ رآها لا تشجعه ، ولا تلقي اليه بالاً ، هز كتفيه متفلسفـــاً وتابع طريقه .

وحمل اليها الجرسون شرابها فسألته هيلاري :

– هل ينزل مستر أرستيد في الفندق وحده أم معه حاشيته ؟

– إن الأثرياء من أمثاله لا يسافرون وحدهم أبداً. إن معه وصيفه وسائق سيارته واثنان من السكرتارية .

وحين ذهبت هيلاري إلى قاعة الطعام رأيت اليوناني منفرداً إلى إحدى الموائد ، كما كان شأنه في الليلة السابقة ، وإلى مائدة قريبة كان يجلس شابان رجح لديها انهما السكرتير إذ كانا لا يفتآن ينظران إلى المائدة التي يجلس اليها مستر أريستيد.

وانقضت الظهيرة في سلام وهدوء ، وطاب لهيلاري ان تمضي معظم الوقت

في الحديقة غارقة بأحلامها وخواطرها ، ناعمة بالجو الشذي والنسمات العطرة التي تنساب حولها .

وأشرفت الشمس على المغيب ، وهبت نسمات باردة ارتعدت لهـا هيلاري ، فزايلت الحديقة إلى قاعة الجلوس ، فإذا بهـا تلتقي وجهاً لوجه بمسز كالفين بيكر .

فقالت لها الأمريكية

– قد وصلت لتوي بالطائرة من كازابلانكا ، فإني لا أطيق القطارات باهتزازها وتأرجحها فوق القضبان .

ولم تدع لهيلاري فرصة الحديث ، وإنما استطردت ، على الفور ، تقول :

– وكيف حالك الآن ؟ لا بد انك زرت المدينة القديمة اليوم ؟

فأجابت :

– الحق إني أمضيت نهاري أستمتع بالشمس .

– آه .. فقد نسيت إنك خارجة لتوك من المستشفى ، فلا بـد بعد الارتجاج من الراحة والانسجام ، وان ترقدي في غرفة معتمة معظم ساعات النهار ، ورويداً رويداً يمكن ان تعتادي على المشي والتجول ، وعندئـذ سأدعوك إلى ان تصحبيني في بعض الرحلات ، لأني أحب جعل أيامي حافلة زاخرة بالنشاط رغم ما بلغت من العمر .

فهنأتها هيلاري بوفرة حيويتها ونشاطها .

واستطردت مسز بيكر :

– أتذكرين السيدة التي عرفتك بها في كازابلانكا ؟ مس هيذرنجتون ؟ إنها قادمة اليوم بالقطار إذ تؤثره على الطائرة .

واستمرت تقول مندفعة كالسيل الجارف :

– لقد حجزوا لي غرفة لا تروقني ، ولكنهم وعدوا بتغييرها ، وسأذهب

اليوم الآن لأرى ما اتخذوا في هذا الشأن .

وانصرفت على الفور تمشي في نشاط لا يتفق وسنها .

وعندما نزلت هيلاري إلى قاعة الطعام مســـاء ذلك اليوم ، كانت مس هيذرنجتون هي اول شخص وقع عليه بصرها .

وبعد العشاء شربت السيدات الثلاث القهوة معاً ، وتبادلن ملاحظات عابرة عن نزلاء الفندق ، الذين كانوا متناثرين حول الطاولات يتناولون العشـــاء .

الفصل السابع

مضت هيلاري الى مكتب الاستعلامات بالفندق ، تخطرهم بعزمها على زيارة الحي الشرقي فزودوها بدليل يصحبها اليه .

ومضى الدليل تصحبه هيلاري يجتازان حديقة الفندق الشاسعة الأرجاء حتى إذا انتهيا إلى طرفها القصي ، أخرج الدليل من جيبه مفتاحاً كبير الحجم ، وفتح به باباً تكاد تحجبه الأشجار عن النظر ، ودلف منه تتبعه هيلاري .

وتسمرت هيلاري مكانها في عجب ودهشة !

فقد الفت نفسها في دنيا غير تلك الدنيا التي كانت تعيش فيها منذ لحظات .

إذن فهذا هو الحي الشرقي الشهير !

شوارع ضيقة ملتوية لا تكاد تتسع لاثنين يسيران جنباً لجنب ، وبيوت منخفضة متلاصقة لو أن الأذرع ارتفعت لطاولت سقوفها ، وأناس يروحون ويغدون في عباءاتهم الوسيمة الفضفاضة أما الحوانيت فتكدست فيها السلع والتحف الشرقية الجميلة المصنوعة من الجلد المزركش أو النحاس المشغول .

وفتنها المشهد وسحرها ، ولولا هذا الدليل الذي كان لا ينفك يثرثر

في أذنها من لحظة لأخرى :

– أنظري لهذا يا سيدتي .. تأملي ذلك .. هل يعجبك هذا ؟

كأنما ليس لها عينان ترى بهما .

وأخيراً قال لها الدليل بعد أن امتدت بهما الجولة وطالت :

– والآن سأذهب بك يا سيدتي إلى مشرب للشاي حيث تتناولين الشاي المغربي الشهير بمذاقه اللذيذ .

ومضى بها إلى مشرب يقع على سفح أحد التلال .

فألفت نفسها داخل مبنى شرقي الطراز ، تناثرت فيه على أرض القاعة وسائد من الجلد المزركش ، وآرائك مكســوة بقماش منقوش ، زاهي اللون . وقدم اليها الشاي المخلوط بالنعناع في كوب زجاجية صغيرة الحجم ، وكان عليها ان تشرب مثنى وثلاث ورباع .

وقال لها الدليل :

– والآن سآخذك في السيارة إلى الضاحية لتري مشهد الطبيعة في بلادنا ، وهو مشهد ساحر خلاب.

ثم أردف :

– ولكن هذه الجرسونة ستذهب بـك أولاً إلى الحمام ، إذ لا شك انـك تريدين ان تغتسـلي .

وتدخلت الجرسونة في الحديث قائلة بابتسامة لطيفة .

– ان لدينا في فزان يا سيدتي حمامات رائعة لا تقل جمالاً عما رأيت في لندن أو باريس او شيكاغو .

ونهضت هيلاري عن الوسادة التي كانت متربعة فوقها ، ومضت في أعقاب الجرسونة .

كان الحمام فعلاً على غاية من الأناقة والنظافة ، وكان مزوداً بالماء الساخن والبارد . وفرغت هيلاري من تجميل نفسها وهمت بالخروج ، ولكنها حين

أدارت مقبض الباب استعصى وأبى أن ينفتح .

عقدت هيلاري ما بين حاجبيها دهشة وغضباً ، إذ ما معنى أن تحبس في الحمام ؟ ومن يكون ذلك الذي أوصد عليها الباب من الخارج ؟

وهمت بأن تقرع الباب لولا ان فطنت إلى باب آخر يقوم في الجدار المقابل فسارت اليه وأدارت مقبضه فانفتح على الفور .

وجدت نفسها في غرفة صغيرة شرقية الطراز معتمة الضوء . وحين الفت عيناها الرؤية ، وأدارت بصرها في أنحاء المكان ، إذ بها تراه جالساً هناك على أريكة يدخن سيجارته في هدوء .

ذلك الفرنسي الذي التقت به في القطار .. مسيو هنري لورييه .

* * *

لم ينهض الفرنسي ليحييها ، وإنما لزم مكانه واكتفى بأن يقول لها :

– طاب يومك يا مسز بيترتون .

ولبثت مكانها برهة جامدة بلا حراك ، وطفت عليها دهشة لجمت لسانها وشلت تفكيرها .

ثم بدأت تستعيد رباطة جأشها .

إذن فقد بدأت الرحلة الحقيقية !. إذن فهذه هي المغامرة التي كانت تترقبها .. إن عليها ان تتصرف طبقاً لما كان مفروضاً أن يصدر عنها « هي» ، عن مسز بيترتون الحقيقية .

إن عليها ان تحسن أداء دورها ، وإلا أودت بنفسها إلى التهلكة .

قالت وقد تمالكت وسيطرت على أعصابها :

– ألديك أنباء لي ؟ أيمكنك ان تساعدني ؟

فأومأ إيجاباً ثم أردف بنبرة لوم وعتب :

– ما بالك كنت في القطار متحفظة حذرة مع انني ظللت طوال الوقت أحدثك عن الجو ؟

الجو ؟. ترى ما الذي قاله مسيو لوربيه عن الجو ؟ نعم ، فقد تكلم عـن البرد .. وعن الضباب .. وعن الثلج . آه ، عن الثلج !

« الثلج » !. نفس الشيء الذي تحدثت عنه أوليف بيترتون وهي تحتضر وتلفظ نفسها الأخير .

وذكرت على الفور أغنية الطفولة التي رددتها عنـــدئذ وبادرت على الفور تكرر نفس المقطوعة :

« الثلج ، الثلج ، الثلج الجميل » .

« تدوسين على قطعة منه ، وتنزلقين .. »

« ثم تذهبين . تذهبين .. » .

وقال لوربيه :

– تماماً .. إنها كلمة السر المتفق عليها ، فلماذا لم تستجيبي إذ ذاك وترددها على الفور كما أمرت .

وقالت هيلاري :

– أغاب عنك اني كنت مريضـــة ؟. فقد كنت في الطائرة التي سقطت وأصبت بارتجاج في المخ أثر على ذاكرتي إلى حد ما إني لا زلت أذكر الماضي بدقائقه وتفاصيله ، ولكني في بعض الأحيان أشعر بفراغ وينمحي كل شيء من ذهني .

فقال لوربيه مؤمناً :

– إني أستطيع ان أدرك هذا . ولكن المشكلة هي هل أنت في حالة يمكنك معها أن تواصلي الرحلة ؟

فردت في حماس :

– طبعاً سأواصل الرحلة إن زوجي ..

فقاطعها :

– إن زوجك على ما فهمت بانتظارك في لهفة وشوق .

فتبسم في وجهها ، بيد ان ابتسامته كانت ملسمة في ثناياها بقسوة واضحة ، فسألها :

– أتعتقدين أن السلطات الانجليزية اقتنعت باجاباتك عندما استجوبتك ؟

– وأنى لي أن أعلم ؟ ولكن يبدو أنهم كانوا راضين .

ثم أردفت :

– ولكني أعتقد أنهم وضعوني تحت المراقبة منذ غادرت البلاد إني طبعاً لم أفطن إلى ان هناك من يتعقبني لكن لدي إحساساً داخلياً بهذا .

فقال لوربيه ببرود :

– هذا شيء طبيعي توقعناه وأدخلناه في حسابنا .. نحن لسنا بالأطفال البلهاء يا مسز بيلرتون . إنك كنت تحت المراقبـــة ، منذ اللحظة التي اختفى فيها زوجك ، ومع ذلك استطعنـــا أن نبلغك رسالتنا ، اليس كذلك ؟.

فقالت مؤمنة :

– طبعاً .. طبعاً .

– والآن سأزودك بتعليماتنا الجديدة .. بعد غد تسافرين لمراكش طبقاً لجدول الحجز السابق . وفي مراكش ستتلقين برقية من إنجلترا تحملك على ان تتخذي على الفور الأجراءات اللازمة للعودة .

فقالت باستغراب :

– هل سأعود لإنجلترا ؟

فرد بجفوة :

– أنصتي إلي ولا تقاطعيني .. ستحجزين لك مكاناً في الطائرة التي ستغادر

كازابلانكا في اليوم التالي .

– وهب ان المقاعد كلها كانت مشغولة ؟.

– لن تكون كلها مشغولة .. ستجدين مقعداً شاغراً في انتظارك .. فقد اتخذنا العدة لكل شيء .

ثم أردف :

– والآن هل وعيت التعليمات تماماً ؟

– وعيتها تماماً .

– إذن عودي إلى الدليل فقد طال انتظاره .. وبهذه المناسبة فقد تعرفت إلى سيدتين في « قصر الجمال » إحداهما أمريكيـة والأخرى إنجليزية ، اليس كذلك ؟

فردت في نبرة من الوجل :

– نعم . فهل أخطأت بهذا ؟ فقد فرضت الأمريكيـة نفسها علي ، ثم عرفتني بزميلتها .. إني آسفة .

– هوني عليك ، فهذا التعارف يلائم خطتي .

ثم أردف :

– يحسن بك ان تحاولي إقناع إحداهما بمرافقتك في رحلتك لمراكش .

– سأحاول يا سيدي وإن كنت لا أدري ان كانت ستقبل أم لا .

– إذن الى اللقاء . طاب يومك .

فرجعت هيلاري الى الحمام ، ومن الغريب ان الباب المفضي الى المشرب استجاب لها حين أدارت مقبضه .

قالت مس هيذرنجتون تخاطب هيلاري كرافن :

– اذن فأنت مسافرة غداً لمراكش ؟. ولكنك لم تقيمي في فزان سوى فترة وجيزة .

– قد استمتعت منها بما يكفي .

ثم أردفت :

– ولعلي أستطيع ان أغري أيكا بصاحبتي في رحلتي لمراكش فقد سعدت بالتعرف بكما ، وسفر المرء وحيداً يبعث على الضجر .

فردت مس هيذرنجتون :

– أرجو ان تعفيني من هذه الرحلة فقد زرت مراكش من قبل .

– لقد كنت في مراكش منذ شهر ، ولكن لم لا أزورها مرة أخرى ؟ اني ولوعة بالرحلات . والمرء حين يزور بلداً للمرة الثانية فإنه يستشف منها ما لم يفطن اليه أول مرة .. اني ذاهبة من فوري لأحجز تذكرة السفر .

* * *

خلت هيلاري كرافن بنفسها،وانهالت على ذهنها الخواطر صاخبة متضاربة كأنها دوامة في لجة من الماء .

وانتزعت نفسها من خواطرها حين سمعت بغتة بجانبها صوتاً يقول :

– أتسمحين لي يا سيدتي ان أجالسك برهة ؟

وكان المتحدث هو ذلك المليونير اليوناني ذو اللحية المدببة : مسيـــو أريستيد وسحب مقعداً وجلس بجانبها ، وقدم اليها سيجارة ، وأشعل لنفسه أخرى .

– ترى هل أعجبتك هذه المدينة يا سيدتي ؟

– لا أدري لاني لم أقض فيها الا برهة وجيزة .

– هل زرت الحي الشرقي ؟

– انه رائع خلاب .

صدقت .. انه رائع حقاً . انه موطن « الماضي » .. الماضي بدسائسه

وهمساته الخافتة وغموضه السحري وعواطفه الجياشة الفاترة !.

ثم أردف :

– أتعرفين يا سيدتي ما يطوف بذهني حين أجوس خلال شوارع فزان الضيقة المتعرجة ؟ اني عندئذ أذكر شوارع لندن المتسعة المكشوفة . هناك كل شيء واضح صريح ، أما هنا فالغموض هو السائد والستائر تخفي كل ما يجري وراءها .

ثم أردف :

– أتعلمين يا سيدتي اني أحسدك على التجربة التي مررت بها بحادث سقوط الطائرة ؟. فقد تمنيت لو اني كنت مكانك !. انها لمغامرة رائعة أن يرى المرء الموت ، ثم اذا به يرتد الى الحيـاة !.. ذلك شيء ينقي الروح ويطهرها !.

وكما جاء فجأة انصرف فجأة ، وهيلاري تتابعه بنظرة تفيض بالدهشة والاستغراب .

الفصل الثامن

في قاعة الانتظار بالمطار كانت هيلاري كرافن تترقب قيام الطائرة ، والى جانبها مسز بيكر تصب في أذنيها ثرثرتها التي لا تنتهي ، وتجيب في شرود على الأسئلة التي توجه اليها .

ولكن سيل الحديث المتدفق ما لبث ان اتخذ مجرى آخر فقد التفتت مسز بيكر الى شابين كانا يجلسان عن كثب أحدهما امريكي يتألق وجهه دائماً بابتسامة عريضة مشرقة والآخر فيما يبدو هولندي أو نرويجي السحنة ، واكثر جداً ووقاراً من صاحبه .

وقالت مسز بيكر تخاطب الأمريكي :

– اني أحب ان أعرفك بصديقتي ، مسز بيترتون ، يا مستر .. يا مستر ..

– اندرو بيترز .. واصدقائي ينادونني باسم آندي .

فنهض الآخر ووقف وانحنى باحترام وقدم نفسه بقوله :

– توركيل اريكسون .

وقالت مسز بيكر :

– والآن وقد تعارفنا .. هل نحن جميعاً ذاهبون لمراكش ؟ هي أول زيارة لصديقتي لهذه المدينة .

فقال النرويجي اريكسون:

– وهي اول زيارة لي ايضاً.

فقال بيترز :

– وهذا ينطبق علي .

وعلا صوت الميكرفون بكلمات متداخلة غير واضحة فهموا منها ان موعد قيام طائرتهم قد حان .

وبخلاف هؤلاء الأربعة ضمت الطائرة شخصين آخرين رجلاً فرنسياً وراهبة صارمة القسمات جامدة الوجه .

واسندت هيلاري رأسها الى ظهر المقعد .

فأطبقت عينيها ، وران عليها النعاس .

وما لبثت ان استغرقت في النوم .

صحت هيلاري فجأة من النوم ، ولاحظت ان الطائرة تنحدر الى الأرض مخفضة من سرعتها .

ومالت الى النافذة ، تطل من ورائها ، بيد انها لم تر أثراً لأي مطار .

وتثاءب الفرنسي وقال :

– يبدو اننا سنهبط ، ولكن لماذا ؟

فردت هيلاري :

– فعلاً ، فقد أخذت الطائرة بالهبوط .

ودارت الطائرة حول نفسها عدة دورات ، وتوقفت محركاتها ، وسكن الهدير .

ترى هل أصابها خلل ما ؟.

أم أن الوقود نفد منها ؟.

فارتطمت العجلات بالأرض ، وجرت فوقها وهي تهتز وتتأرجح فوق

المطبات غير المستوية .

وجاء الطيار من مقصورته يقول لهم :

— أرجوكم جميعاً أن تتفضلوا بالنزول .

وغادروا الطائرة تباعاً واحداً تلو الآخر .

لم يكن مطاراً ذلك الذي هبطوا فيه ، وإنما كان بقعة منعزلة في قلب الصحراء الممتدة بلا حدود .

وقالت هيلاري متسائلة في صوت تغشاه الحيرة :

— ولكن ما الذي جرى ؟ لماذا نزلنا هنا ؟

وقال الطيار مجيباً :

— إننا على كل حال لن نبقى إلا دقائق قليلة .

ورمى ببصره عبر الأفق ناحية الجبال المكسوة بالثلوج .

ثم قال :

— لقد تأخرت قليلاً ، ولكن ها هي ذي قادمة على البعد .

وقال المسافر الفرنسي :

— قد فهمت انه ستكون في انتظارنا سيارة ميكروباس لكي نكمل الرحلة فيها .

وعادت هيلاري تتساءل :

— هل أصاب المحرك عطب؟

وابتسم بيترز إبتسامته العريضة المألوفة ، التي تشيع في كل ثنايا وجهه وقال :

— كلا .. إن المحرك سليم ، ولكن كان لا بد أن يدبروا شيئاً من هذا القبيل .

وأخيراً جاءت السيارة الميكروباس ، يقودها سائق من البربر ، في سرعة خاطفة اضطر معها ان يضغط فراملها بكل قوة حتى توقفت بجوارهم

في المكان المناسب .

ولدهشة هيلاري سمعت مسز بيكر تصدر أمراً بقولها :

ـ هيا أسرعوا فلا نريد ان نتأخر أكثر من هذا .

ومضى السائق إلى الجزء الخلفي من السيارة وفتح الباب فانكشف عن صندوق ضخم يشغل المؤخرة .

وتعاون بيترز وايريكسون مع السائق والطيار على إنزال الصندوق إلى الأرض في جهد ومشقة إذ بدا ثقيلاً مرهقاً .

فأقبل الفرنسي على الصندوق يفتحه ويرفع غطاءه ، فاقتربت منه هيلاري محاولة النظر لما بداخله .

فأخذت مسز بيكر بذراعها تنحيها جانباً وهي تقول :

ـ لو اني مكانك لما حاولت النظر الى ما في الصندوق .

فقالت هيلاري بعجب مستغربة :

ـ ولم لا ؟ ما الذي في الصندوق ؟

وتألقت ابتسامة بيترز العريضة وقال :

ـ إني أعرف ما فيه .. إن فيه مجموعة من الجثث ؟

ورددت هيلاري في ذهول :

ـ جثث ؟.

ـ نعم جثث .. جثث اشتريت بطريقة قانونية سليمة لإجراء بحوث طبية عليها ، والذي اشتراها هو الدكتور بارون .

وأشار إلى الرجل الفرنسي.

ثم استطرد :

ـ هنا تنتهي رحلتنا ، يا مسز بيترتون .. أعني المرحلة الأولى من الرحلة ..

ستوضع الجثث في الطائرة ثم تشتعل فيها النيران، وسوف نراها على البعد

ونحن نستقل الميكروباص شعلة متأججة..

وغمغمت هيلاري :

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟

وكان الدكتور بارون هو الذي أجاب .

فقال :

ـ ولكنك تعرفين ، طبعاً ، إلى أي مكان سوف نذهب ، إننا ذاهبون للمصير المجهول .

الفصل التاسع

– والآن أرجو ان تستقلوا الميكروباس ، وان تسرعوا فقد تأخرنا عن الموعد المحدد .

وصعدوا إلى الميكروباس ، والتفتت هيلاري إلى السيدة الأمريكية وقد بدأت تدرك حقيقة الوضع وسألتها :

– إذن فأنت ما يسمونه بضابطة الاتصال ؟

فأجابتها مسز بيكر :

– تماماً .. اني ضابطة الاتصال التي تتولى العلاقات العامة ، فليس ما يثير الشك رؤية سيدة امريكية تتنقل بين مختلف البلاد وتتحدث الى هذا وذاك ، فتلك طبيعة الأمريكيين .

واستطردت مسز بيكر:

– وسوف يكون خبراً مثيراً ان يقرأ الناس في الصحف ان الطائرة سقطت بمسز بيترتون للمرة الثانية ، وان كانت هذه المرة قد احترقت مع سائر الركاب ، ولم يعثر في الحطام الا على جثث شوهتها النيران واختفت معالمها المميزة .

وأطلقت مسز بيكر ضحكة مرحة ، فأدركت هيلاري مدى دهاء الخطة المدبرة وبراعتها . فقالت :

– وهؤلاء الآخرون ؟ ما شأنهم ؟

فردت مسز بيكر :

– الدكتور بارون من أشهر علماء الجرائم ، ومستر اريكسون من أفذاذ علماء الطبيعة ، أما مستر بيترز فباحث كيماوي شهير . ومس نيدهام ليست راهبة طبعاً ، وانما هي أخصائية في الغدد . أما انا فلا أنتمي الى البيئة العلمية وانما مجرد ضابطة اتصال .

وتساءلت هيلاري :

– ومس هيذرنجتون ؟ ما شأنها ؟

– شأنها فيما أعتقد هو مراقبتك وتتبع خطواتك مذ حللت بكازابلانكا وكذلك التأكد من ان أحـداً لا يقتفي أثرك ، وان كنت في حقيقة الأمر لا اعرف شيئاً عنها فربما كانت غير منتمية الينا .

وهتفت مسز بيكر :

– آه .. أنظري ! ها هي ذي تشتعل .

ومالت هيلاري الى النافذة تنظر منها فرأت على البعـــد شعلة تتأجج من النيران ، وسمعت دوي انفجار خافت .

ورمى بيترز برأسه الى الوراء وقال وهو يضحك :

– غداً تنشر الصحف بالخط العريض : ستـــة أشخاص يلقون حتفهم عندما هوت بهم الطائرة وهم في طريقهم الى مراكش !.

ولن يخطر لهم ببال ابداً ان هؤلاء الأشخاص الستة كانوا من قبل جثثاً هامدة شبعت موتاً .

وهمست هيلاري :

– هذا مخيف ! مخيف جداً !

– أتمنين الانطلاق للمصير المجهول ؟

كان بيترز هو الذي تكلم، وكان الآن يبدو جاداً تبددت من سماته امارات

المرح التي كانت تغشاه .

واستطرد :

– هذا صحيح ، ولكنه الطريق الوحيد ، اننا الآن نطرح « الماضي » وراءنا ، ونخطو الى « المستقبل » .

واضاء وجهه باشراقة من الحماس والانفعال وقال :

– الآن ، نهجر خلفنا الأشرار والمجانين .. الحكومات الفاسدة وتجار الحروب . سنذهب الى الدنيا الجديدة ، دنيا العلم ، بعيدين عن الحثالة والقاذورات .

وزفرت هيلاري نفساً عميقاً ، وقالت عن عمد :

– قولك هذا شبيه بما كان يردده زوجي دائماً .

فقال :

– زوجك ؟. أتعنين توماس بيترتون ؟. إنني لم أتعرف عليه أبداً في الولايات المتحدة ، وإن كانت بعض المؤتمرات قد ضمتنا أكثر من مرة .. إن جهاز تفتيت الذرة الذي وفق اليه من أعظم الاختراعات في العصر الحديث ، وإني لأجله وأقدره من أجل هذا .. إنه كان يعمل مساعداً لبروفسور مانهايم ، اليس كذلك ؟

فأومأت هيلاري إيجاباً ، فاستطرد بيترز :

– قد قيل لي انه تزوج إبنة مانهايم ، ولكنك طبعاً لست ..

فقاطعته :

– إني زوجته الثانية ، فقد ماتت الزا في أمريكا .

– آه .. آه .. إنني أذكر هذا الآن .. وبعد وفاتها سافر بيترتون لانجلترا ليعمل هناك ، ثم أذهل العالم بأن اختفى فجأة .

وضحك بيترز واستطرد :

– تلاشى فجأة وهو يحضر أحد المؤتمرات في باريس وابتلعه « المجهول » .

وكان هذا هو الذي يثير الفزع في قلب هيلاري : إن المنظمة تجيد تدبير الخطط .

جميع تدابير الأمن التي اتخذت لحمايتها .. جميع التدابير التي وضعت لتتبع خطواتها ، كل هذا قد انهار وذهب هباء ، فلا أحد الآن يعرف مكانها .. غداً سيقال ان مسز بيترتون لقيت حتفها عندما سقطت بها الطائرة للمرة الثانية ، ولن يخطر ببال أحد انها الآن في قلب الصحراء منطلقة إلى « المصير المجهول » ، حيث سبقها اليه توماس بيترتون من قبل .. فقد اختفت آثارها ، ولم يعد باقياً إلا طائرة محترقة ورماد ست من الجثث .

ترى هل يستطيع جيسوب ان يعرف انها هي .

هيلاري كرافن ، لا تزال على قيد الحياة ، وان جثتها ليست بين هذه الجثث المحترقة ؟ أغلب الظن انه لن يعرف أبداً ، فقد دبرت الخدعة بدهاء منقطع النظير .

إنهم الآن ستة أشخاص ، في سيارة ميكروباس ، في قلب الصحراء فكيف يمكن أن تختفي آثارها بمثل هذه السهولة ؟

ألا يحتمل أن يرى السيارة أي إنسان ؟ هل قضي عليهم بأن تنقطع صلتهم إلى الأبد بعالم البشر ؟. إن هذا ليبدو مستحيلاً .. رغم براعة الخطة المدبرة ودهائها .

وهمست هيلاري :

– لكن إلى أين نحن ذاهبون

فردت مسز بيكر :

– مهلاً ولا تتعجلي !. سوف تعرفين كل شيء في الوقت المناسب .

وتابعت السيارة مسيرتها بلا هوادة ، وهيلاري لائذة بالصمت ، تضرب في متاهات الخيال والوساوس

ومال رأسها فوق صدرها ، وما لبثت أن أخذتها غفوة من النوم

* * *

في رفق لمس بيلترز ذراعها وهو يقول :

– إستيقظي إذ يبدو اننا بلغنا مكاناً ما .

وهبطوا جميعاً من السيارة ، وكان الليل قد أرخى سدوله واشتد الظلام . وعلى ضوء أحد المشاعل ساروا إلى بيت ريفي تحف به أشجار النخيل الباسقة ، وعند بابه امرأتان من البربر تتسامران بالضحك .

واقتيدت النساء الثلاث ، هيلاري ومسز بيكر والراهبة ، إلى غرفة فيها ثلاث مراتب وبعض الأغطية ، ولا شيء غير ذلك من الأثاث .

وقالت مسز بيكر كالفن :

– وددت لو اني الآن في فندق « قصر الجمال » أنعم بالراحة على فراش وثير ، فقد حطمت السيارة أضلعي

فردت عليها الراهبة في صوت جاف به مسحة من الاسترجال :

– الراحة نقمة تخلق الضعف والمذلة والهوان .

فتطلعت اليها مسز بيكر تتأملها ثم قالت :

– إني أستطيع أن أتخيلك مس فيدلهايم جاثية على الأرض فوق الحصى والأحجار تبتهلين وتصلين دون أن يداخلك بالتعب أو الانهاك .

ثم التفتت إلى مسز بيترتون قائلة :

– بعد ان نتعشى سآتيك بقرص من الأسبرين فتستغرقين في النوم بعد مشقة هذه الرحلة المضنية .

وجيء اليهن بالطعام والشاي المعطر بالنعناع ، وما ان أتين عليه متعجلات

حتى هرعن الى مراقدهن وغرقن في نوم عميق .

وقالت مسز بيكر لصاحبتيها في الصباح ان الرحلة لن تعاود مسيرتها إلا عند هبوط المساء .

وجاءت اليهن الخادمتان بثياب وطنية فقالت مسز بيكر :

– منذ اللحظة سترتدي الزي الوطني المراكشي وتخلع الثياب الأوربية .

فأمضت النساء الثلاث نهارهن بين الفراش وبين الجلوس في سطح البيت يشرفن على مشاهدة الطبيعة التي تدور حولهن ، وعلى قرية ريفية تظهر لهن على البعد .

وأخيراً حانت ساعة الرحيل ، وقد توارت الشمس وراء الأفق . وفي هذه المرة لم يستقلوا السيارة الميكروباص المقفلة ، وإنما انحشروا في سيارة سياحية مكشوفة ، وكانت النســـاء يرتدين الزي الوطني المراكشي ، وعلى وجوههن نقاب مسدل . أما الرجال ، فلبسوا الجلاليب والعبـــاءات الفضفاضة .

وتتابعت ساعات الليل والسيارة تمرق بهم عبر الصحراء الممتـــدة ، وهم صامتون يداعب النوم أجفانهم ، والمقاعد غير المريحة تقض أجسادهم المرهقـــة .

وقال آندي وقد تبدد الليل وبزغت الشمس ، وتوقفت بهم السيارة ونزلوا منها لتناول طعام الفطور :

– كيف حالك يا مسز بيترتون ؟ فقد كانت ليلة مضنية ؟

– طول الليل والأحلام المزعجة تراودني .

ثم أردفت متسائلة :

– أين نحن الآن يا ترى ؟

– من يدري ؟ فهي مجرد صحراء لا اول لها ولا آخر وهذا ما يلائم الخطة المدبرة حتى لا نخلف وراءنا أثراً يهتدى به الينا

فأطلق ضحكته المرحة المعهودة واستطرد :

ـ أولاً طائرة تنفجر ويحترق ركابها جميعاً .. وثانياً سيارة ميكروباس عليها لوحة تشير الى أنها تابعة لبعثة هندسية تمسح الأرض .. وفي اليوم التالي سيارة سياحية تستقلها جماعة من البربر ، وهو شأن شائع في مثل هذه المناطق أما المرحلة التالية من الرحلة فهي ما لا علم لنا به .

فتساءلت هيلاري :

ـ لكن ما هي وجهتنا ؟

فهز آندي كتفيه ورد :

ـ لا جدوى من السؤال ، فتلك دائماً أسئلة لا جواب عليها .

الفصل العاشر

إستمرت الرحلة الغامضة أياماً أخرى .

كانت هيلاري تعيش معهم وتؤاكلهم ، وتحدثهم وتخاطبهم ، ومع ذلك فقد ظلت طوال الوقت تحس انها بعيدة عنهم ، لا تشاركهم آراءهم ومعتقداتهم كأنما بينهم وبينها سد هائل .

فهذا هو الدكتور بارون لا يتمنى إلا شيئاً واحداً ، هو أن يحصل على النقود فيغرق نفسه في معمله بين أجهزته وأنابيب الاختبار . وكان من حين لآخر يحدثها عن قوة التدمير المروعة التي يمكن أن تحتوي عليها أنبوبة في حجم قبضة اليد . وسألته :

ـ ولكن أيمكنك حقاً استعمالها ؟

فنظر اليها بانفعال جنوني وقال :

ـ ولم لا ؟ ما دام الأمر ضرورياً .

وسرى الرعب بأوصالها ، وهز أعماقها هزاً عنيفاً ، وداخلها شعـــور بالخوف منه .. ومن الآخرين .

ها هوذا رجل يتحدث بمنتهى الاستخفاف عن إبادة الملايين من البشر ، دون ان تهتز شعرة في رأسه .

وكذلك كانت هيلاري تكره تلك السيدة المتعجرفة المستعلية هيلدا

نيدهام . ولكنها كانت تميل إلى آندي بيترز وإن أفزعها منه ذلك الوميض المتألق الذي كان يغشى عينيه من حين لآخر .

قالت له يوماً :

– انك لا تريد خلق دنيا جديدة، لأن الذي يسعدك هو تدمير هذه الدنيا التي نعيش فيها .

فقال مستنكراً :

– ماذا تقولين يا أوليف ؟

– إن الأمر واضح ولست مخطئة . إني أكاد ألمس الحقد الذي يتأجج به صدرك . الحقد .. الكراهية ، الرغبة في التدمير ، هذا هو ما يجيش به صدرك .

أما نظرة هيلاري لاريكسون فكانت مختلفة .. فهو رجل حالم .. رجل مثالي متعلق بالأوهام .

كان دائماً يردد :

– نحن معشر العلماء يجب أن نسود العالم .. نحن الذين يجب ان نحكم ونسيطر . مقاعد الحكم لم تخلق الا للعباقرة .

وهكذا كانوا جماعة واحده ، يضمهم مكان واحد ، ولكن معتقداتهم ونوازعهم كانت متنافره متناقضة ، بيد انه كان يجمعهم هدف مشترك : ذلك أنهم كانوا جميعاً يتطلعون الى وهم وسراب .

وفي نهاية اليوم الثالث هبطوا قرية صغيرة ، ونزلوا في خان وطني متواضع وطلبت اليهم مسز بيكر ان يخلعوا الزي المراكشي وأن يعودوا الى ثيابهم الأوربية .

وقالت لهم :

– وأرجو ان تسرعوا لأن الطائره تنتظرنا .

فقالت هيلاري باستغراب .

– الطائرة ؟

– نعم . فحسبنا هذه السيارة التي قضت منا الأضلع .

واستقلوا الطائره ، وكان القائد فرنسي الجنسية بارعاً بمهنته . وطاروا بضع ساعات ، فمرت بهم الطائرة بأمان من وسط الجبال الشاهقة .

وبعد ظهر اليوم التالي أخذت الطائره تهبط الى الأرض ، حتى استقرت عجلاتها على سهل تحف به الجبال ، في مطار بدائي ، يقوم عند طرفه القصي بناء أبيض .

فمشت بهم مسز بيكر الى البناء وهي تقول آمره :

– عليكم ان تغتسلوا وتتناولوا القهوه قبل ان تستقلوا السيارات .

واغتسلوا ومشطوا شعورهم ، وجاءهم الخدم العرب بالقهوه والسندويشات وتأهبوا لمواصلة السفر .

فقالت لهم مسز بيكر وهي تنظر في ساعتها :

– لقد آن لي ان أتركـكم ايها الصحاب فتلك هي المرحلة الأخيره من الرحلة .

فسألتها هيلاري :

– أراجعة انت لمراكش ؟

– وكيف أرجع اليها والمفروض اني ميتة احترقت بي الطائرة التي سقطت؟ ان ورائي مهام أخرى في بلاد ثانية .

فقالت هيلاري :

– ولكن هب ان أحداً التقى بك صدفة ممن عرفوك في مراكش ؟

فضحكت مسز بيكر وقالت :

– وهل يصعب علي ان اتخلص من هذا المأزق ؟ سأزعم بأن لي شقيقة تشبهني تمام الشبه وهي التي احترقت في الطائرة . وطبعاً سيكون لدي جواز سفر باسم آخر وسأغير لون شعري ونبرات صوتي .

فأزدادت هيلاري إعجاباً بالخطة المدبره .

وودعت مس بيكر رفاق السفر ، فاستقلت الطائرة ، وما لبثت أن علت في الجو وتوارت وراء الأفق .

* * *

وجاءهم أحد الخدم العرب قائلاً :

ـ السيارات جاهزة أيها السادة .

كانت بانتظارهم سيارتان كاديلاك يقودهما سائقان يرتديان الزي الرسمي فاتخذت هيلاري جلستها في المقعد الأمامي بجانب السائق الفرنسي، وكانت من حين لآخر تحدثه حديثاً عابراً عن المشاهد التي تمر بها السيارة .

وسألته أخيراً :

ـ ترى هل تطول الرحلة

ـ المسافة من المطار للمستشفى تستغرق حوالي ساعتين يا سيدتي .

وطنت الكلمات في أذنيها، ولأول مرة فطنت إلى ان هيلدا نيدهايم كانت الآن تلبس زي الممرضات .

وعادت تسأل السائق الفرنسي :

ـ حدثني قليلاً عن المستشفى .

ـ إنها من أروع المستشفيات في العالم ، ومزودة بأحدث الأجهزة العلمية ، وكثير من كبار الأطباء يزورونها من حين لآخر ثم يرحلون وهم يثنون عليها أعظم الثناء . إن الأبحاث التي تجري فيها لخير الإنسانية جمعاء .

فقالت هيلاري تجاريه :

ـ طبعاً . هذا لاشك فيه .

واستطرد السائق :

– فيما مضى كان هؤلاء التعساء يرسلون إلى جزيرة مهجورة فيقضون ما تبقى من حياتهم حتى يدركهم الموت . أما الآن فهم يعالجون هنا بالدواء الذي اكتشفه الدكتور كولوني ، وقد ثبت نجاحه في معظم الحالات حتى الحالات المستعصية المزمنة .

وعجبت هيلاري لحديث السائق، إذ لم تكن تدري من هؤلاء الذين نعتهم بالتعساء ، ولا أي داء يعانون .

وتوقفت بهم السيارة أمام المستشفى ، فاستقبلهم زنجي يرتدي ثياباً بيضاء فتح لهم البوابة ودعاهم للدخول .

ورأت هيلاري نفسها في فناء كبير حجز معظمه بسور من القضبان والأسلاك وراء السور كان جماعة من الناس يتمشون رائحين غادين .

فاستداروا ينظرون القادمين الجدد ، وعندها هتفت هيلاري وهي تشهق في رعب .

– يا إلهي !. إنهم مصابون بالجذام .

ولفرط فزعها ظلت على أوصالها رعدة كادت معها أن تتهاوى إلى الأرض مغشياً عليها .

الفصل الحادي عشر

أغلقت البوابة وراء القادمين الجدد ، مرسلة رنيناً حاداً بدا من هذا السكون الشامل وكأنه صادر من مطارق تدق السندان دقاً عنيفاً ، وخيل إلى هيلاري أن رنين البوابة كان يحاكي صوتاً يقول :

« أنتم يا من تدخلون ، اطرحوا الأمل فأنتم لا تعودون » .

نعم .. تلك هي النهاية .. النهاية الحقيقية ، نهاية بلا رجعة ، إنها الآن وحيدة وسط الأعداء ، ولن تمضي دقائق معدودات حتى تواجه باكتشاف أمرها وانفضاح سرها .

ودار بخلدها :

الآن انطبقت على المصيدة ولم يعد أمامي سبيل إلى الفرار .

سوف لا يقع عليها بصر توماس بيترتون حتى ينطلق صارخاً :

– ولكن هذه ليست زوجتي .

وتنتهبها العيون من كل جانب ، بنظرات حانقة شزراء .. جاسوسة في وسطهم !

وخطر لها أن تعكس الموقف : بدلاً أن يصرح بيترتون بأن هذه ليست زوجتي ، ستبادر هي بمجرد أن يقع بصرها عليه :

– كلا . ليس هذا هو زوجي .

وإذا استطاعت أن تجعل الحماس يدب في صوتها ، والرعب يطل من عينها - فسوف تنجح في إثارة الشك ..

سوف يرتابون ويتساءلون :

- ترى .. هل بيترتون هو حقاً بيترتون ، أم عالم آخر انتحل شخصيته ، واندس بينهم ؟ هل هو الجاسوس ، أما هي فالزوجة الحقيقية ..

ولكن ، أليس معنى هذا أن يصبح بيترتون هو الضحية ، وأن يقضى عليه بالهلاك ؟

إن ضميرها لن يبكتها ، ولن تندم أبداً ، فبيترتون خائن ، إنحاز إليهم ، وجاء إليهم يبيعهم أسرار بلاده ، فهو أهل لأن يموت ، دون شفقة أو رحمة .

وانتزعها من خواطرها اليائسة رجل عملاق الجسم وسيم الوجه أقبل على الجماعة يستقبلهم ويحييهم واحداً بعد الآخر .

وحين مد يده يصافح هيلاري رسم على شفتيه ابتسامة باهتة مصطنعة وقال لها :

- لا شك أنك متلهفة إلى لقائه .

واشتد اضطرابها ، وأخذتها غشية عابرة من الدوار ، وشردت عيناها بنظرة تجردت من التعبير .

وبادر أندي بيترز يلمس ذراعيها في رفق ويسندها وهو يقول للضيف الذي جاء يرحب بهم :

- لعلك لا تعلم إن الطائرة سقطت بمسز بيترتون ، وأنها أصيبت بارتجاج في المخ ، وقد زادتها هذه الرحلة المضنية المتواصلة إرهاقاً فوق إرهاق ، إنها الآن يجب أن تستريح ساعة أو ساعتين في غرفة معتمة .

واستشفت هيلارى من صوته ومن ذراعه التي تسندها بادرة من الرحمة

والاشفاق .

ولكنها استجمعت شجاعتها ، ورفعت رأسها وقالت :

ــ كلا .. كلا .. يجب أن أقابل توم .. إذهبوا بي اليه في الحال .. أريد أن أراه حالاً .

وقال الرجل العملاق الوسيم :

ــ طبعاً يا مسز بيترتون ، إني أستطيع أن أدرك حقيقة مشاعرك .

وأشار إلى إمرأة تقف على قيد خطوات وهو يقول :

ــ دعوني أقدم اليكم مسز جينسون .

وقدم اليها القادمين الجدد كل واحد بدوره .

ثم قال :

ــ ستصحبكم مسز جينسون إلى مكتب التسجيل وتقدم اليكم شراباً ريثما أصحب مسز بيترتون إلى زوجها ، وسأعود اليكم بعد برهة قصيرة

واستدار منصرفاً ، وفي أعقابه هيلاري كرافن ، وحانت منها لفتة إلى الوراء ، ورأت بيترز يتابعها ببصره ، وخيل اليها أنه يهم في تردد أن يلحق بها ، ثم آثر البقاء .

وقال لها الرجل وهو يمشي بها في دهاليز طويلة ملتوية :

ــ إنني أدعى بول فاق هايديم .

وقالت له هيلاري :

ــ إنه لأمر فظيع مرعب .. أعني هؤلاء المجذومين .

ــ إنك لن تلبثي أن تألفي رؤيتهم .

وتوقفت فجأة عند أحد الأبواب ، وقرع الباب ، وتريث برهة ، ثم فتحه وقال :

ــ بيترتون . ها هي ذي هنا أخيراً .. زوجتك .

وتنحى عن الباب قليلاً ليفسح لها مكاناً للدخول ..

دخلت هيلاري إلى الغرفة . الآن لا سبيل إلى التراجع ، لا سبيل إلى التردد ، تقدمت إلى الداخل .. تقدمت أماماً .. إلى القدر المحتوم .

كان الرجل واقفاً عند النافذة ، وحين استدار اليها أدهشها أن رأته شديد الوسامة . إن الصورة التي رأتها لتوماس بيترتون لم تكن على مثل هـــذه الوسامة ، بل كانت مختلفة إلى حد غير قليل .

ووافتها الفكرة على الفور بسبب هذا الاختلاف ، واستقرت عليها .

تقدمت إلى الأمام في خطوة سريعة ، ثم ارتدت متراجعة إلى الوراء ، ورن صوتها في أرجاء الغرفة نابضاً بالفزع واليأس :

ــ ولكن هذا ليس هو توم ، إنه ليس زوجي .

لقد أدت دورها باتقان منقطع النظير ، وتلاقت عيناها الحائرتان بعيني فان هايدم .

وعندئذ ضحك توم بيترتون . وكانت ضحكته لطيفة هادئة ، والتفت إلى فان هايدم الواقف بمدخل الباب وقال له :

ــ هذا رائع ما دامت زوجتي نفسها لم تعرفني .

وأسرع إلى هيلاري فاحتواها بين ذراعيه وضمها إلى صدره وهو يقول :

ــ أوليف .. حبيبتي .. إنك طبعاً تعرفينني .. إني توم طبعاً وإن لم يعد لي نفس الوجه الذي عرفتني به من قبل .

وظل يضمها إلى صدره ، والصق فمه بأذنيها وهمس :

ــ مثلي دور الزوجة . بالله عليك .. انني في خطر .

وخلى عنها ذراعيه ، ثم عاد يضمها اليه مرة أخرى وهو يقول :

ــ آه يا حبيبتي .. كانت الشهور التي انقضت بمثابـــة دهور ودهور ، ولكن شكراً لله .. ها نحن أخيراً قد التقينا .

وأحست بأصبعه تنغرز في جسدها محذرة ، منذرة متوسلة ضارعـة وتلقت الرسالة ووعتها .

واستطرد بصوت عال :

— أنظري الي يا حبيبتي .. إني توم .. لا شك انك الآن عرفتني .

وتلقفت هيلاري النجدة الالهية وتشبثت بها . غمغمت :

— آه .. حبيبي توم ، إنك توم طبعـــاً ، لا شك أن إصابتي بالارتجاج جعلتني أفقد ذاكرتي برهة .

— ليس هذا فقط وإنما أيضاً جراحة التجميــــل .. إن الدكتور هيرتز جراح التجميل المشهور موجود هنا ، وقد أصلح أنفي المهشم بـسبب حادث السيارة .

واستدار يتطلع إلى فان هايدم فوجده يبتسم مغتبطاً .

وقالت هيلاري :

— انني آسفة يا حبيبي ، الارتجاج والرحلة الشاقة ، كل هذا أثر علي ..

فقال لها زوجها المزعوم :

— هوني عليك يا حبيبتي ، بعد شيء من الراحـــة ، سيزول كل أثر الارتجاج .

وانسحب فان هايدم ، وأغلق الباب وراءه .

وضمها الى صدره وهمس في أذنيها بصوت لا يكاد يسمع :

— استمري في تمثيل دورك ، فقد يكون في الغرفة ميكرفون مخبأ .

وهمست بدورها وهي تسند رأسها الى صدره :

— أو ربما ثقب خفي في الجدار يراقبوننا من خلاله .

وجلسا يتناجيان ، ويتبادلان القبلات من حين لآخر ، ويستعيدان بعض الذكريات السعيدة ، وسألته :

— هل أنت سعيد هنا ؟

وكان سؤالاً طبيعياً يجب أن توجهه أية زوجة لزوجها . فقال :

— الحياة هنا رائعة .

ولكن نظراته كانت تنم على الخوف والانزعاج . فسألته :
- ولكن هؤلاء الجنوميين ؟ أهذه حقاً مستعمرة للجذام ؟

فضحك وقال :
- مجرد ستار نخفي وراءه حقيقة أبحاثنا وأهدافنا .
ثم أردف :
- والان تعالي لنلقي نظره على الجناح المخصص لاقامتنا .
وطاف بها غرف الجناح ، وهو يتأبط ذراعيها .
وحين عاد بها سألها :
- أتحبين أن تستريحي قليلاً ؟
واذ أجابت بالنفي قال لها :
- اذن هيا بنا الى مكتب التسجيل ، اذ لا شك انهم الان في انتظارنا .

الفصل الثاني عشر

كانت السيدة التي ترأس مكتب التسجيل شبيهة بالسجانات في صرامة وجهها وجمود قسماتها .

فرحبت بالدكتور بيترتون في كلمات وجيزة مقتضبة .

ثم قالت له :

ـ إذن فقد جاءت مسز بيترتون أخيراً .

كان يبدو من لكنتها أنها سويسرية .

فأشارت إلى هيلاري تدعوها للجلوس ، وفتحت درجاً تناولت منه عدة استمارات نشرتها فوق المكتب ومضت تدون بعض البيانات

وقال بيترتون :

ـ إني ذاهب إلى عملي يا أوليف ، فالحقي بي حين تفرغين .

وانصرف بيترتون فأوصد الباب خلفه .

ونظرت رئيسة مكتب التسجيل إلى هيلاري وقالت :

ـ والآن ، إسمك بالكامل والسن ومحل الميلاد ، وأسماء الأبوين ، والأمراض الخطيرة .. وما هي هواياتك المختلفة والأعمال التي التحقت بها ، ومؤهلاتك العلمية ، والأطعمة التي تفضلينها وهناك أسئلة أخرى سوف أوجهها اليك فيما بعد .

فتبسمت هيلاري باعياء ، وأخذت تجيب على الأسئلة ، والسيدة ماضية في تدوينها بالاستمارات التي أمامها .

وأخذت الأسئلة تتوالى عليهـا تباعاً ، حتى كأنها سيـل جارف ، لا ينتهي .

وأخيراً رفعت السيدة رأسها وقالت :

ــ هذا هو ما يختص به هذا المكتب ، والآن سأبعث بك للطبيبة شوارتز لتفحصك من الناحية الطبية .

فسألت هيلاري :

ــ وهل هذا ضروري ؟

ــ ضروري جداً يا مسز بيترتون ، لأننا هنا نؤمن بالكمال ، ونحب أن نثبت كل شيء في السجلات .

وقامت الطبيبة شوارتز بفحص هيلاري فحصاً دقيقاً استغرق برهـة غير قصيرة .

ثم قالت لها :

ــ والآن عليك ان تذهبي للدكتور روبيك .

فسألت هيلاري :

ــ ومن يكون الدكتور روبيك هذا ؟

ــ طبيب نفساني .

ــ ولكني لست بحاجة إلى طبيب نفساني .

فقالت الطبيبة شوارتز تخفف عنها :

ــ لا داعي للانزعاج يا مسز بيترتون .. إن كل ما سيجري بينكما لا يعدو اختباراً للذكاء وتحديد معالم شخصيتك .

وكان الدكتور روبيك سويسرياً في الأربعين من العمر .

فرحب بها في لطف ودماثة ، وتصفح البطاقة التي بعثت بها اليه الطبيبة

شوارتز ، ثم قال :

– يسعدني أن أعرف ان صحتك جيدة يا مسز بيلاتون .

ثم أردف :

– لقد بلغني انك تعرضت لحادث سقوط طائره منذ مدة وجيزه ، اليس كذلك ؟

فقالت :

– نعم ، وقد أمضيت خمسة أيام في مستشفى كازابلانكا .

– ولكن خمسة أيام لا تكفي إطلاقاً . كان يجب ان يستبقوك أكثر من هذا .

فردت :

– كنت تواقة لمغادرة المستشفى لأواصل رحلتي .

– هذا تصرف غير سليم ، فالإصابة بارتجاج المخ تحتاج برهة طويلة من الراحة والاستجمام . إنك قد تتراءين سليمة في البداية ، ولكن هناك احتمالاً كبيراً لآثار جانبية خطيره .

إن جهازك العصبي ، فيما أرى ، مضطرب إلى حد ما ، وهذا راجع دون شك لمشقة الرحلة والارتجاج في الوقت نفسه .

ثم سألها :

– هل تشعرين بصداع ؟

– نعم .. صداع شديد جداً .. ومن حين لآخر أشعر بدوار ، وأفقد ذاكرتي .

– طبعاً .. طبعاً .. إني أستطيع أن أدرك هذا .. والآن سأجري بعض الاختبارات لأتبين مستوى عقليتك .

ومضى الطبيب روبيك يجري عليها اختباراته ويوجه اليها بعض الاسئلة ويدون حصيلة ذلك كله في استمارة أمامه .

وأخيراً قال :

– أتمنى ألا يسوؤك يا سيدتي القول أنه مما يسعدني فحص شخص ليس من العلماء العباقرة .

فضحكت هيلاري قائلة

– ومـا الذي يسوؤني من هـذا ، وأنا أعـلم أني لست بالعبقرية ، أو النابغة .

فقال الطبيب :

– وهذا من حسن حظك ، يا سيدتي ، فإن حياة العباقرة جحيم لا يطاق .

واستطرد ،

– إني هنا لا أتعامل إلا مع قوم مفرطي الذكاء ، وهؤلاء معرضون دائماً للاختلال العصبي تحت وطأة الضغط الذي يعانونه . فالعالم يا سيدتي ليس بارداً هادئاً ، كما يبدو في الظاهر . لأن انهماكه في عمله يجعل أعصابه مرهفة إلى أقصى حد . ولا فرق في هذا إطلاقاً بين الممثلة الأولى أو بطل التنس أو عالم الذرة .

فردت هيلاري مؤمنة :

– صدقت ، فقد خبرت هذا بنفسي .

إذ كان المفروض أنها عاشرت بيلرتون برهة طويلة ، باعتبارها زوجته ، وهو دون شك من العلماء العباقرة .

وكأنما شاء أن يقتضب الحديث ، فمد اليها يده بغتة يصافحها وهو يقول :

– والآن ستذهبين إلى مدموازيل لاروش فتمضي بك إلى قسم الملبوسات لتختاري ما يروقك من الثياب .

كانت جميع النساء اللائي التقت بهن هيلاري حتى تلك اللحظـــة ،

يعملن كأنهن آلات ميكانيكية ذكرتها بالإنســـان الآلي روبوت أما مدموازيـــل لاروش فكانت على العكس مرحـــة متدفقة الحيوية اطمأنت هيلاري القائها .

قالت الفتاة :

– إني سعيدة بأن أتعرف اليك يا سيدتي وأتمنى أن أوفق في تقديم كل مساعدة ممكنة .

ثم أكملت :

– بما أنك وصلت لتوك لا شك انك لا زلت متعبـــة . ولذلك أشير عليك بأن تكتفي الآن بانتقاء بعض الثياب الداخلية الضرورية وفستان واحد ، وغداً وفي خلال الأيام التالية يمكنك القاء نظرة على ما لدي من ثياب ومن مستحضرات التجميل .

فردت هيلاري معقبة :

– كل ما أرجوه من دنياي أن أمتلك مشطاً وفرشاة .

فضحكت مدموازيل لاروش في مرح ومضت تدون مقاسات عميلتها في مفكرة لديها ثم قالت :

– سأبعث على الفور إلى جناحك بكل ما وقع عليه اختيارك ، وانـــه ليسعدني ان تترددي على المحل من حين لآخر فقد تبينت أن لك ذوقاً رفيعاً في الاختيار . أما هؤلاء السيدات « العالمات » فقد ضقت بهن ذرعاً ، خاصة وإنهن لا يبدين أي اهتمام بمستحضرات التجميل .

ثم استطردت :

– منذ نصف ساعة كانت لدي هنا واحده منهن أثارت أعصابي . احدى زميلاتك في السفر .

قالت هيلاري :

– لعلك تعنين هيلدا نيدهايم

– تماماً . هذا هو اسمها .. فهي ألمانية طبعاً ، والألمانيات عاده لا يحفلن بالتجميل ، مع انها يمكن ان تبدو جميلة لو هي أبدت بعض الاهتمام بنفسها ، فهي دكتوره فيما فهمت ، ولكن الرجل لا يبحث عن المؤهلات العلمية وإنما عن لمسة من الجمال والأنوثة .

آه .. ها هي ذي أخرى لا يمكن لرجل أن ينظر اليها .

فقد بدت مس جينسون في مدخل الغرفة وفوق عينيها نظاره صغيره عتيقة الطراز .

فقالت مس جينسون

– إذا كنت قد فرغت يا مسز بيترتون فسأصحبك لمقابلة نائب المدير الدكتور نيلسون .

فقالت هيلاري في نفسها :

– كل من هنا يحمل لقب دكتور ، عداي أنا .

ثم علت صوتها متسائلة :

– وما هو تخصصه ؟

– انه ليس طبيباً ، فهو حاصل على الدكتوراه في فن الإداره ، ومن عادته أن يقابل كل وافد جديد ليتحدث اليه ولكنك لن تقابليه بعد هذا إلا اذا ثارت مشكلة مهمة .

* * *

ونهض الدكتور نيلسون من خلف مكتبه يحييها ، ويشد على يدها في حرارة .

وقال لها :

– يسعدني مشاهدتك بيننا يا مسز بيترتون ، ودعيني أهنئك بالنجاة من هذا الحادث المؤسف الذي وقع لطائرتك .

فشكرته على لطفه ، واستطرد يقول :

– اني مستعد لان أجيب على أي سؤال يخطر بذهنك ، فهل لديك ما تحبين ان تستفسري عنه ؟

فبدت علائم الحيره في وجهها وقالت :

– الحق اني لا أعلم ، ولكن العل كل ما يعنيني أن أستفسر عنه هو أن أعرف أين أنا الآن ؟

وابتسم نيلسون وأجاب :

– اني أفهم ما يجول في ذهنك .. انكم تعتقدون جميعاً للوهلة الاولى لفرط ما سمعتم من مفتريات أنكم ذاهبــــون الى موسكو – خلف الستار الحديدي ، ولكن لا يا سيدتي ، انك الآن في افريقيا .. في قلب الصحراء المراكشية ، ومستعمره الجذام التي تعيشين الآن بين أسوارها ، هي بمثابة الستار الحديدى ، لانهــا ترد عن علمائنا المتطفلـين الذين يحاولون أن يكتشفوا مقرهم .

فردت .

– صدقت .. فقد تخيلت في البداية اننا مسافرون الى موسكو

واستطرد الدكتور نيلسون :

– انك ستعيشين هنا في عزلة تامة عن العالم ، ولكن وسائل الترفيه والتسلية متوافره ..

ان لزوجك عمله الذى قد يشغله عنك ، فقد ينكب على العمل ليل نهار ولا يفرغ لك الا نادراً ، ولكنك يمكنك ان تشغلي نفسك بقضاء الوقت مع زوجات العلماء ، وسوف تجدينهن لطيفات ودودات

وسألته بشيء من الإحجام :

– لكن هل يسمح لنا بالخروج ؟

فنظر اليها وقال متردداً :

– الخروج يا مسز بيلرتون ؟

فقال برقة :

– سؤال طبيعي لا بد ان يصدر من كل وافد جديد .. لكن المبدأ الأساسي الذي تدين به منظمتنا هو أننا هنا في دنيا قائمة بذاتها، لا شيء يدعونا لتجاوز حدودها ونذهب لخارجها .. فهي دنيا كاملة ذات اكتفاء ذاتي شامل .

الفصل الثالث عشر

قالت هيلاري وقد عادت إلى جناحها :

– إن الحياة هنا شبيهة بجو المدارس .

فقال بيترتون :

– هذا ما يحسه المرء في البداية . أنا نفسي داخلني هـذا الشعور حين جئت .

كان الحـــديث بينهما يدور في تحفظ وحذر خشية أن يكون هناك ميكروفون مدسوس بين الأثاث أو في الجدران .

ثم أردف :

– وهذا ما يرتد بنا إلى عهد الطفولة السعيدة .

وغمز بعينه .

فلم يغب عنها النذير المقصود

وبدا لها الأمر كله عجباً .

فهي ذي في قلب الصحراء تشارك شخصاً غريباً تخدعه وتشاطره فراشه ، ومع ذلك فإن في التوجس والقلق والخطر المسيطر عليهما ما جعل الرابطـة التي بينهما مفككة منفصمة .

وعادت إلى الحديث فقالت

– لقد أجروا علي عدة فحوص طبية ونفسية .
– هذا ما يفعلونه دائماً مع القادمين الجدد .
– فهل فحصت أنت أيضاً؟
– انه أمر طبيعي .
واستطردت :
– وبعد ذلك قابلت الدكتور نيلسون نائب المدير فتبادلنا الحديث فترة قصيرة .
– إنه إداري حازم قدير .
– ولكني لم أقابل المدير بعد
– أحسب أنك لن تقابليه أبداً ، وإن كان من حين لآخر يلقي علينـا بعض المحاضرات ، انه رجل ذو شخصية جذابة .
وقطب بيترتون جبينه ، وأدركت انه يريد أن يثنيهـــا عن مواصلة الحديث ..
فما كان منها إلا أن لاذت بالصمت .
وقال لها بيترتون :
– إنهم يتناولون العشاء هنا ابتداء من الثامنة مساء ، فيحسن بنا يا عزيزتي أن نستعد النزول ..
وأبدلت ثيابها ، وارتدت الفستان الذي جاءت به من قسم الملابس ، وتحلت بعقد من اللآلىء المقلدة .
فهبطـا معاً إلى قاعة الطعام ، وخفت مس جينسون إلى استقبالهما قائلة :
– لقد أعددت لك يا توم مائدة كبيرة يشارككما فيها بعض رفاق زوجتك في السفر فضلاً عن مارشيسون وزوجته .
وأرشدتهما إلى المائدة المقصودة ، وكان آندي بيترز وأريكسون قد

سبقا اليها وانتظما حولها ، وقدمت « زوجها » إلى الرجلين . ولم يلبث الدكتور مارشيسون وزوجته أن لحقا بهم ، وقدمهما بيترتون إلى الاخرين وهو يقول :

– سيمون وأنا نشتغل معاً في معمل واحد .

وكان سيمون مارشيسون شاباً نحيفاً في السادسة والعشرين ذا وجه باهت اللون .

أما إمرأته بيانكا فكانت ممتلئة الجسم إلى حد ما، وبحديثها لكنة أجنبية واضحة .

ورحبت بيانكا بهيلاري في لهجة مهذبة ، ولكن في شيء من التحفظ ، ثم قالت متسائلة :

– انك لست عالمة فيما أعتقد .

– كلا .. اني لم أتلق تدريباً علمياً فقد كنت أعمل سكرتيره قبل زواجي .

وقال الدكتور مارشيسون:

– لقد درست زوجتي الاقتصاد والقانون التجاري ، وهي تلقي علينا بعض المحاضرات من حين لاخر ، وان كانت لا تجد إلا نفراً قليلاً يؤم محاضراتها .

فهزت بيانكا كتفيها في استخفاف وقالت :

– لقد استطعت على أية حال أن التمس هنا ما اشغل به وقتي ، فقد بدأت في دراسة أحوال مجتمعنا هذا حتى أعمل على تطويره وتحسينه ، وما دامت مسز بيترتون غير قائمة ببحث علمي ، فإن في وسعها أن تساعدني في مهمتي .

وسارعت ترحب بالاقتراح

وأضحكهم آندي بأن قال

– أرجو أن يعهدوا الي بالعمل على الفور ، والا انقلبت تلميذاً أمضي وقتي في لعب البلي .

وقال سيمون ماشيسون في حماس :

– هذا مكان رائع للبحث العلمي ، فكل الأجهزه متوافره ولا أحد يقحم نفسه أو يقطع عليك عملك .

وسأله بيترز :

– ما تخصصك يا دكتور ؟

وأخذ الرجلان يتداولان حديثاً علمياً بحتاً ، فتحولت مسز بيترتون إلى اريكسون الذي كان متراخياً في مقعده بعينين شاردتين وسألته .

– وأنت ؟ أتراك أيضاً تحس حنيناً للوطن .

فتأملها بنظرة شارده وقال :

– اني رجل لا أؤمن بمثل هذه الترهات الفارغة : الوطن ، روابط الأسره والطفل ، مشاعر المحبة والوفاء – كل ذلك هراء ، ان المرء لكي يعمل يجب أن يكون حراً طليقاً لا يشده أي نوع من القيود .

– أو تشعر انك هنا ستكون حراً طليقاً ؟

– هذا ما أرجوه ، وان كنت لا أدري الحقيقة حتى الان .

ومالت بيلنكا الى هيلاري تقول :

– بعد العشاء لدينا الكثير مما نشغل به وقتنا .. غرفة لعبة البريدج مثلاً والعاب الورق الأخرى ..

قاعة لسينما تعرض أفلاماً حديثة ، وقاعة للتمثيل تعمل ثلاثـــة أيام كل أسبوع ، وكذلك سهرات راقصة من حين لاخر .

وقطب اريكسون جبينه وقال :

– كل هذا لغو لا جدوى من ورائه . انه يصرف الباحث عن عمله ويبدد نشاطه ..

فقالت بيانكا :

- لكن هذا الذي تسميه لغواً ضروري لنا معشر النساء .

فنظر اليها بنظرة باردة كأنما يقول :

- وحتى انتن معشر النساء لا ضرورة لكن ..

وتعمدت هيلاري أن تتثاءب وقالت :

- أما أنا فسآوى الليلة إلى فراشي مبكرة إذ لا زلت متعبة مرهقة .

فردت بيانكا :

- إنك على حق يا عزيزتي ، فقد كابدت الأهوال فضلاً عن هذه الرحلة المضنية .

فقال بيترتون وهم يزايلون المائدة :

- الجو الليلة منعش لطيف ، وقد اعتدنا ان نقضي بعض الوقت في حديقة السطح قبل ان نمضي إلى العمل أو النوم فلم لا تصحبينا يا عزيزتي أوليف .

وكانت حديقة السطح تحفة فنية رائعة ، كانت بستاناً حافلاً بأجمل أنواع الزهور وأندرها ، تتوسطها نافورة صغيرة يتدفق منها الماء رشاشاً متناثراً ، تنعكس عليه أضواء ملونة خلابة .

وقالت هيلاري في افتتان :

- إني لا أصدق ما ترى عيني ، أيقوم هذا في قلب صحراء قاحلة مجدبة ؟ فكأني أعيش في قصة من ليالي الف ليلة !

فقال مارشيسون :

- صدقت يا مسز بيترتون ، ولكن ما دام الماء غزيراً والمال متوافراً ، فلا شيء مستحيل .

- لكن من أين لكم بهذا الماء الغزير ؟

- من نبع عميق حفرناه في الجبل بأحدث الأساليب العلمية .

فأخذوا يتمشون في حديقة السطح قليلاً ، ويتسامرون بالحديث . ثم انسحبوا واحداً بعد الآخر ، فلم يبق أخيراً إلا توماس بيترتون « وزوجته » هيلاري .

فأخذ بيدها وأجلسها على أحد المقاعد المتناثرة في أنحاء الحديقة، فوقف في مواجهتها ، وحدجها بنظرة متسائلة فقال :

– والآن . من أنت بحق الشيطان ؟

فرفعت وجهها تنظر اليه برهة دون انتجيب، وبدلاً من أن ترد على سؤاله قالت تسأله :

– لماذا كذبت فزعمت إني زوجتك ؟

فتبادلا نظرات صامتة . وأخيراً قال بيترتون :

– مجرد نزوه طارئة .. فقد خطر لي انك ربما جئت لتخرجيني من هنا .

– يا إلهي ! . أهذا سؤال توجهينه إلي ؟ إن الإجابة واضحة معروفة .

فعادت تسأله :

– ولكن كيف جئت إلى هنا ؟

فانفرجت شفتاه عن ضحكة مبتوره وقال :

– إذا كنت تقصدي اني اختطفت أو شيئاً من هذا القبيل فانزعي هذه الفكره من رأسك .. فقد أتيت إلى هنا من تلقاء نفسي وبمحض إرادتي ، وكنت ممتلئاً حماسة .

– وهل كنت تعرف انك قادم إلى هذا المكان

– كلا .. لم يخطر لي أبداً انني آت الى افريقيا . ولم أحاول أبداً أن أسأل .. فقد احتواني البريق الخداع ، وأخذتني الكلمات الحماسية : السلام العالمي .. الحرية المطلقة .. إقتسام الأسرار العلميــــة بين دول العالم جماء .. القضاء على الرأسماليين وتجار الحروب . نعم .. كل هذه الترهات المزوقة .

وصاحبنا بيترز الذي صحبك في رحلتك ، انه أيضاً ابتلع الطعم .

– وما الذي اكتشفته بعد ان وصلت ؟

– سوف ترين بنفسك ، لكن يكفي أن أقول لك ان الحرية التي حلمنا بها لا وجود لها هنا .

وجلس بجانبها على الأريكة مقطب الجبين وقال :

– ونفس الوضع هو الذي أثارني بانجلترا وجعلني أكره البقاء فيها .. تدابير الأمن الصارمة .. التجسس على حركاتي وسكناتي .. تعقب خطواتي ومحاسبتي على كل كلمة أتفوه بها ، كل هذا حطم أعصابي .

واستطرد بنفس النبرة اليائسة المكتئبة :

– ثم جئت هنا فإذا الفردوس الموعود مجرد سراب ، فقد عانيت نفس الأوضاع ، بل أشد هولاً .

أحدث الأجهزة العلمية رهن اشارتنا والمال متوافر لإجراء الأبحاث التي نجريها ، ولكني مع هذا لا أملك إلا ان أشعر بأني في سجن تحف به الأسوار والقضبان .

فران عليهما الصمت ، ثم استدار اليها متسائلاً :

– والآن فلنعد الى ما كنا فيه .. ما الذي جعلك تحضرين هنا وتزعمين انك أوليف ؟

– أوليف ؟

ثم أمسكت تلتمس الكلمات الملائمة لكي تجيب على السؤال .

وعاد يتساءل :

– ولكن أين اوليف ؟ ما الذي جرى لها ؟

وناورت وتحايلت على الكلمات ، ثم اضطررت اخيراً ان تجيب .

وحملق فيها شارداً ثم قال :

– اذن فأوليف ماتت .

وغرق في صمت طويل ، ثم رفع رأسه أخيراً وقال :

– أوليف ماتت ، وحللت أنت مكانها .. ولكن لماذا ؟

وكان الجواب حاضرا في ذهنها . لم تكن هيلاري كرافن حتى هـــذه اللحظة مطمئنة تماماً الى بيترتون ، وكانت تراه مزعزع الأعصاب وشيكاً على

الانهيار ، فمن دواعي الحكمة ان تحجب دونه أسرارها .

فقد قال لها في بداية الحديث انه حسبها اتت لكي تنقذه « وتخرجه من هنا » فلم لا تجاريه فيما أظن ؟ ان من الحماقة ان تصارحه بأنها مجرد جاسوسة وفدها جيسوب لتوافيه بما تقع عليه من معلومات .

فردت تجيب على سؤاله :

– كنت مع زوجتك في المستشفى حين ماتت ، فتطوعت لأداء هذه المهمة وقررت أن أنتحل شخصيتها واسمها ، خاصة وان قوامي يشبـــه قوامها ، وشعري الأحمر بلون شعرها .

– حقاً .. فإن لك نفس الشعر الأحمر النحاسي . لكن ما هي الرسالة التي أرادت أوليف ان تبلغها الي ؟

– أتعرف شخصاً يدعى بوريس ؟

– نعم ، بوريس جلايدر .. انني لم أقابله مطلقاً ، لكنـــه ابن عمة زوجتي السابقة .

– لقد أرادت أوليف ان تكون منه على حذر .. قالت انه خطر .

– خطر ؟. ولماذا يكون خطرا علي ؟. هــذا عجيب .. أتراه قابل أوليف ؟.

– هي لم تقابله ولكنها تلقت رسالة منه .

– وما الذي قاله لها ؟

– هذا لا علم لي به ، ولكنها ذكرت جملة أخرى ، قالت : « تذهبين ؟. تذهبين ؟. اذهبي وحدثيه عن بوريس .. انني لا أصدق هذا .. لا أستطيع ان أصدق .. ولكن ربما كان صحيحاً واذا كان فيجب ان . ان يكون على حذر » .

وكانت هذه آخر كلمة نطقت بها ، ثم لفظت النفس الاخير .

– بوريس !.. ولكن لماذا ؟.. لماذا ؟.. هذا لا أستطيع أن

أتبينه .

ولاذ بالصمت برهة ثم عاد يقول :

– يا الهي !. لقـــد قضي علي بأن أبقى هنا الى الابد .. خلف القضبان .

فردت هيلاري بصوت مليء بالثقة والايمان .

– بل لا بد ان نخرج من هنا .

– لكن كيف ؟. كيف ؟. إن هذا مستحيل .

– لا مستحيل في الدنيا .. سنجد وسيلة .

لم تكن هيلاري مؤمنة بما تقول ، ولكنها أرادت أن تبث في نفســه الشجاعة والأمل حتى لا تنهار أعصابه فأكملت :

– لا داعي لليأس .. هناك سجون ومعتقلات حصينة استطاع من فيها أن يهربوا منها بوسيلة ما .. بحفر نفق مثلاً .. كل ما هنالك ان الأمر يحتاج الى التأني والوقت .

فردد في يأس :

– ومن أين لي الوقت ؟. ألا تعرفين ما يحدث هنا ؟. إنهم يريدون من العالم الذي يأتون به هنا ان ينتج شيئاً . يريدون منه ان يبحث وأن يخرج عليهم باكتشاف عبقري ، أما إن عجز فهل تدرين مصيره ؟

– يعيدونه الى بلاده طبعاً ؟

– بل يتخلصون منه .. يقتلونه !

– يقتلونه ؟ اني لا أصدق هذا .

– بل تلك هي الحقيقـــة ، لانه لم يعد ذا نفع لهم ، بل أصبح عبئاً عليهم .

وقد أصبحت أنا هذا العبء المكروه .. فإن شعوري بأنني سجين هنا شل تفكيري ، فلم أعد قادراً على موالاة البحث ، فلم أنتج شيئاً منــذ

حضرت . وقد ظنوا ان ابتمادى عن زوجتي هو الذى جد عبقريتي ، ولذلك أرسلوا يستدعونها ، والآن وقد حضرت انت باعتبارك زوجتي فإنهم لن يصبروا علي أكثر من هذا .

فإما ان أنتج ، وإما ان أقتل .

فأخذت هيلاري بذراعه وهي تقول :

– والآن فلنعد الى جناحنا فقد تأخر بنا الوقت .

ثم أكملت :

– نم مطمئناً ، فسوف نجد وسيلة للفرار .. نعم .. حتماً ، سوف نهرب !.

الفصل الرابع عشر

في فندق « المأمون » في مراكش كانت مسز جانيت هيذرنجتون مجتمعة بشخصين ، أحدهما غيسوب ، والآخر فرنسي تشع عيناه ذكاء .

ولكن هيذرنجتون هذه لم تكن تلك التي رأيناها من قبل تتعرف الى هيلاري في كازابلانكا وفزان وتقضي معها معظم الوقت .

كان لها حقاً نفس القوام ، ونفس الملامح ، ونفس هيئة الشعر وتنسيقه .

ولكن هيذرنجتون هذه كانت تبدو أصغر سناً وأكثر حيوية ، فقد كانت عند لقائها بهيلاري تخفي سماتها الحقيقية .

وقال لها غيسوب مستطرداً في الحديث :

– اذن فهؤلاء هم الوحيدون الذين اتصلوا بها في فزان ؟

– كان هناك أيضاً هذه المرأة المدعوة كالفن بيكر التي تعرفت بي وبأوليف بيترتون ، وقد حيرني أمرها كثيراً ، فقد بدا لي انها أقحمت نفسها على مسز بيترتون ، بيد انها أمريكية الجنسية ، ومن عادة الامريكيين أن يترددوا أو يتحدثوا الى كل انسان على غير سابق معرفة .

وعقب غيسوب :

– هذا صحيح .

فقالت جانيت هيذرنجتون :

– ولكن الغريب الذي يسترعي النظر انها استقلت نفس الطائرة .
فتساءل غيسوب :
– أتريدين أن تقولي أن سقوط الطائرة كان حادثاً مدبراً ؟
ثم التفت الى الشخص الفرنسي وسأله :
– ما رأيك في هذا يا ليبلان ؟
فرد الفرنسي :
– هذا محتمل ، وان كان من المستحيل أن نقيم الدليل على هذا ، فقد احترقت واحترق كل من فيها .
– وما رأيك في الطيار ؟
– الكادي ؟ انه طيار مغامر مرن الضمير ، ولا يسعى الا وراء المال ، ولا يؤمن بشيء من المعتقدات السياسية ، بل لا شأن له بالسياسة على الاطلاق .
– اذن فلا يمكن أن يكون قد قام بتخريب الطائرة لكي ينتحر ويضحي بنفسه ..
فقال ليبلان
– عثرنا بين حطام الطائرة على سبع جثث مخترقة متفحمة اختفت معالمها.
وعادت مس هيدرنجتون لمتابعة حديثها وقالت :
– وقد تبادلت مسز بيترتون بضع كلمات مع أسرة فرنسية كانت تنزل مع اطفالها في نفس الفندق ، وكان في الفندق أيضاً سويدي من الأثرياء مع احدى نجوم السينما .. وكذلك مستر اريستيد المليونير اليوناني صاحب آبار البترول .
فقال ليبلاند
– هذا الشخص عجيب الشأن ، فرغم ملايينه التي لا تحصى فهو عزوف عن النساء ، لا يلعب الميسر وليس لديه جياد للسباق ، وانما يحبس نفسه في قصره في اسبانيا لا يبرحه الا نادراً ، وليس له من هواية الا جمع التحف

الصينية .

واستطردت جانيت هيذرنجتون :

– وفيما أعلم لم تتبادل مسز بيترتون حديثاً لا مع الثري السويدي ولا مع المليونير اليوناني

فسألها غيسوب :

– والخدم والجرسونات ؟

– هذا محتمل دائماً .. وقد زارت المدينة القديمة مع أحد الأدلاء ، وبمجرد عودتها قررت أن تسافر إلى مراكش ، فمن المحتمل أن يكون أحد قد اتصل بها أثناء زيارتها للمدينة القديمة .

وقال غيسوب :

– وكذلك قررت مسز كالفن بيكر فجأة أن تصحبها في رحلتهـــا إلى مراكش .. ألا يبدو هذا أمراً غريباً ، وهي التي كانت في مراكش منـذ فترة وجيزة ؟

ومضى غيسوب يذرع الغرفة وهو غارق في التفكير ..

ثم قال :

– كلما تمعنت في الأمر ازددت اقتناعاً بأن سقوط الطائرة كان حادثاً مدبراً .

فقال ليبلان

– من السهل جداً الهبوط بالطائرة إلى الأرض وإحراقها عمداً، ثم الادعاء بعد ذلك بأنها سقطت واحترقت ، ولكن كيف تعلل وجود الجثث بين الحطام هل يمكن أن يرضى ركابها بأن يقبعوا في داخلها ساكنين حتى يحترقوا ؟

وقال غيسوب .

فلنلق نظرة أخرى على قائمة الركاب .

وتناول ليبلان ورقة مطوية من جيبه ، ونشرها أمامه ، وانكب عليهـــا

الرجلان يتصفحانها .

– مسز كالفن بيكر ، أمريكية .. مسز بيسترتون ، انجليزية .. توركيل. أركسون ، نرويجي في السابعة والعشرين وإني أذكر إسمه فقد سبق له أن القى بعض المحاضرات في الجمعية الملكية .

واستطرد ليبلان :

– وبعد ذلك راهبة المانية ، ثم أندروبيترز الأمريكي الجنسية ، والدكتور بارون أشهر علماء الجراثيم في العالم .

فقال غيسوب معقباً :

– محال أن يكونوا قد ضحوا بهؤلاء الأفذاذ عمداً .. لا بد أن في الأمر سراً ولكن المشكلة هي تلك الجثث التي وجدت محترقة بين الحطام .

ورن جرس التليفون وتناول ليبلان السماعة ، وأنصت برهة إلى محدثه ، ثم قال وقد أشرق وجهه وتألقت عيناه :

– حسناً . حسناً جداً .. ابعث بهم إلي في الحال .

ثم تحول إلى غيسوب قائلاً :

– يبدو يا عزيزي انك على صواب فيما ذهبت اليه ، لقد أمرت رجالي بأن ينتشروا في كل مكان يبحثون ويتحرون وقد عادوا إلي بمعلومات على غاية قصوى من الأهمية .

فتساءل غيسوب :

– حقاً ؟ وما الذي جاءوا به .

– مهلاً ، مهلاً . وسوف ترى .

وفتح الباب بعد لحظات ودخل شخصان يرتدي أحدهما الزي الأوروبي ، وكانت ثيابه معفرة دلالة على انه قادم لتوه من السفر ، وكان برفقته شخص آخر يرتدي العباءة المراكشية الفضفاضة .

وقال الأوروبي :

- لقد قمنا بتحريات واسعة ووعدنا من يدلي الينا بأي معلومات بمكافأة جزيلة ، وقد انتشر صاحبنا هذا (وأشار إلى الرجل العربي) وأفراد أسرته وأصدقاؤه في كل مكان يسألون ويستفسرون ، وقد رأيت أن آتي به معي لتسمع منه بنفسك ما لديه من معلومات.

والتفت ليبلان إلى العربي قائلا :

- إن لك فيما أرى يا صاح عين صقر تستطيع أن ترى كل شيء ، ولا يمكن أن يفوتها شيء ، فهيا هات ما عندك .

وأخرج الشخص من طيات عباءته لؤلؤة كبيرة يضرب لونها إلى القرمزي وقال:

- إنها شبيهة تماماً باللؤلؤة التي عرضتموها علي وعلى رجالي ، لقد عثرنا عليها .

وتناولها منه غيسوب ، وقارنها بلؤلؤة أخرى أخرجها من جيبه ، فكانتا متماثلتين تماماً ، ثم أخذ عدسة مكبرة وفحص اللؤلؤتين بدقة .

وغمغم يقول :

- نعم .. إن العلامة ظاهرة .. إنها فتاة رائعة .. رائعة ! لقد نفذت تعليماتي ، يا لها من فتاة !

وفي خلال ذلك كان ليبلان منهمكاً في استجواب الرجل العربي ، فلما فرغ منه تحول إلى غيسوب قائلاً :

- هذه اللؤلؤة يا زميلي العزيز وجدت على مسافة نصف ميل من حطام الطائرة ، وجثتها ليست قطعاً إحدى الجثث السبع المتفحمة التي وجدت بين الحطام .

وقال ليبلان وهو يتصفح قائمة ركاب الطائرة مرة أخرى :

- أوليف بيلرتون والدكتور بارون .. هذان الاثنان على الأقل ذاهبان حتماً إلى حيث يراد لهما بأن يذهبا . أما الأمريكية كالفن بيكر فيمكننا

أن نخرجها من حسابنا . وتوركيل أريكسون له أبحاث عرضت على الجمعية الملكية العلمية ، والأمريكي بيترز باحث كياوي طبقاً لما ورد في جواز سفره ، والراهبة الالمانية هيلدا يمكن أن تكون عالمة متنكرة في هذا الزي ، الواقع ان الجماعة كلها من الأخصائيين ، فهل جمعوهم معاً في طائرة واحدة كي يحرقوها ويقضوا عليهم ؟ هذا طبعاً فرض مستبعد .. أخرجوهم طبعاً من الطائرة ثم أحرقوها فمن أين جاءوا بالجثث التي وجدت متفحمة بين الحطام ؟

فقال غيسوب :

– فلنطرح هذا البحث الآن جانباً ، فهو ليس بذي أهمية .. المهم أننا عرفنا أن ركاب الطائرة لم يحترقوا معها ، وإنما بدأوا رحلة جديدة من حيث عثرنا على الحطام – فما هي الخطوة التالية ؟ هل نزور موقع الحادث ؟

وبدأت حملة بحث دقيقة على طول الطريق ، أسئلة في كل خان .. وأسئلة في كل محطة بنزين .. وأسئلة في مختلف القرى .

وأخيراً أسفر البحث عن شيء ..

قال ليبلان :

– انظر يا صديقي .. لقد فتشوا المراحيض كما أمرت فعثروا على هذه اللؤلؤة في خان عبدالله ملصقة بالجدار بقطعة من اللبان ، وقد استجوبناه وأفراد أسرته ، فأنكروا كل شيء في البداية ، ثم اعترفوا وقالوا أن ستة أشخاص في سيارة رحلات نزلوا بالخان ، وذكروا انهم بعثة المانية للبحث والتنقيب عن الآثار ، وطلبوا منهم أن يتكتموا الأمر ، لأنهم يقومون بالعمل خفية دون تصريح من الحكومة ، ونقدوهم من المال قدراً كبيراً ، وفي قرية « الكيف » عثر بعض الغلمان على لؤلؤتين أخريين ، وبذلك عرفنا اتجاه السيارة .

وفي الصباح التالي جاء رجال ليبلان باكتشاف جديد ، لقد عثر العرب

على ثلاثـــة لآلىء صفت على شكل مثلث ، وملصقة فوق قطعة من اللبان .

وقال غيسوب :

– اللآلىء المثلثة الشكل معناها أن الطائرة هي وسيلة الانتقال في المرحلة القادمة من الرحلة .

فقال ليبلان :

– إنك على صواب يا صديقي ، فقد عثروا على هذه اللآلىء في مطـــار حربي مهجور كان يستعمل خلال الحرب .

ثم أردف :

– والان فتلك هي المشكلة ، بل أعقد المشاكل طائرة مجهولة ، نتجه الى مكان مجهول .

وتنهد قائلاً :

– وعند هذا تتوقف أبحاثنا ، ويضيع منا الأثر .

الفصل الخامس عشر

أقبلت مس جينسون بعينيها الذابلتين تتألقان تحت نظارتها العتيقة الطراز ذات الزجاج السميك وقالت تخاطب هيلاري :

– لدينا اجتماع هذا المساء سيخطب فيه المدير نفسه .

فقال بيترز معقباً .

– حسناً .. فقد كنت أتمنى أن القي نظرة على هذا المدير الخفي .

فرمته مس جينسون بنظرة لوم وعتاب ، ثم استدارت منصرفة .

قال بيترز :

– يبدو لي انها تعبده كما كانوا يعبدون هتلر .

فقالت هيلاري :

– وهذا ما تراءى لي .. إنها فاشيستية متحمسة .

وقال بيترز مستطرداً :

– حين غادرت الولايات المتحدة كنت ممتلئاً حماسة وشباباً ، أتوق إلى دنيا تسودها الأخوة والسلام . لكن لو اني توقعت اني سألقى بنفسي بين براثن هذا الديكتاتور لما تركت وطني .

فهتفت هيلاري وقد تضرج وجهها احمراراً :

– لكم يسعدني ان أسمعك تقول هـذا ؟ وكم يسعدني ان التقيت بك

فأنت رجل ظريف وبسيط .

فرد ضاحكاً:

- يبدو لي أنك ضقت بعاشرة العباقرة .

- صحيح ، ثم انك تغيرت كثيراً في الأيام الأخيره ، فزايلك شعور الكره والمرارة .

- إنك مخطئة بهذا .. فهنا .. في أعماقي .. لا زال الحقد كامناً يتأجج ويتلظى .. نعم ، يا أوليف .. هناك•أشياء يجب أن يبغضها الإنسان .

* * *

بعد العشاء انعقد الاجتماع الذي أشارت اليه مس جينسون في قاعة المحاضرات وحضره جميع أعضاء البحث العلمي ، من علماء ومساعدين وكيماويين وغيرهم .

واتخذت هيلاري مجلسها بجانب « زوجها » المزعوم بيترتون ، وهي أشد ما تكون لهفة إلى مشاهدة الرجل الذي يدير هذا المركز ويفرض عليه قيوده وأغلاله .

فقد سألت عنه زوجها فكانت إجابته متسمة بالغموض .

قال : قد رأيته مرتين فقط ، انه شخص عظيم ذو شخصية طاغية جبارة يستحوذ على عقلك ويخضعك لسلطانه بمجرد أن يتكلم .

وأخيراً ظهر الرجل على منصة الخطابة ، ووقف الحضور جميعاً تحية له .

كان رجلاً متوسط العمر متين البنيان ، لا بالطويل ولا بالقصير ، يتميز

بعينين تشمان ذكاء متألقاً ، وله نظرات نفاذة كأنما ليسري فيها تيار كهربائي قوي .

حين وقف يتكلم تعلقت به العيون في انتباه شديد .

إستهل خطابه بأن قال :

– دعوني أولاً أرحب بزملائنا الجدد الذين انضموا الينا في الأيام الأخيرة.

ثم شرع بعدئذ يتحدث عن أهداف المنظمة وأمانيها .

وحاولت هيلاري فيما بعد تستعيد في ذهنها ما سمعته ، فاستعصى عليها الأمر ، وخيل اليها انه لم يتفوه إلا بكلمات عادية مرسلة جوفاء ، وإن كان الانصات اليه أمراً مختلفاً جداً . فحين يتكلم تحس بسحره يطغى عليك فيأخذك ويحتويك ، لكن إذا ما حلت كلماته وجدتها مجرد لغو لا يقدم ولا يؤخر .

فذكرت هيلاري عندئذ ما حدثها به صديق لها عاش في المانيا في الحرب ، وكيف كان الشعب الألماني يجن ويشتعل حين يستمع إلى هتلر .

وكان خطيب الليلة أيضاً من ذاك الطراز العجيب .

سحر الحاضرين بكلماته ، فجعلوا يتابعون كلماته مشدوهين كأنما يهيمون في السماوات .

فتكلم الخطيب في البداية عن الشباب ، ودور الشباب في حكم العالم ، وان مستقبل البشرية منوط بالشباب .

قال : الثروات المكدسة ، والنفوذ الإقطاعي ، والأسرات الكبيرة المتضامنة ، تلك كلها أسلحة الماضي . أما اليوم فالشباب هو مصدر القوة والسلطان . نعم . إن العقول هي القوة .. عقل الكيماوي ، والعالم الطبيعي ، والمهندس .. من بطون المعامل أيها الأصدقاء تنبثق القوة التي يمكن أن تدمر العالم .. وبهذه القوة في أيدينا يمكن أن نقول للدنيا : « إما التسليم وإما الموت ! »

واستطرد :

– وهذه القوة المدمرة الهائلة لا يصح أبداً أن تكون في يــد دولة واحدة ، وإنما أن تتقاسمها جميع الدول ، وأن تكون ملكاً للجميع .. إنكم أيها الأصدقاء جئتم من جميع البلاد ، وجئتم معكم بأعظم ما وصل اليه العلم من اكتشافات ، كما جئتم معكم بالشباب ، فليس من بينكم من تجــاوز الأربعين .. فهنا سوف نقيم دولة الشباب لكي تحكم العالم .. سنقول للدنيا :

ها قد جاء الشباب ليحكم ويسيطر .. أيها الرأسماليون .. أيها الملوك .. يا رجال الصناعة ، ويا قادة الجيوش ، تخلوا عن مقاعدكم ، فالشباب قد جاء ليحكم !

وعلى هــذا النسق جرت الخطابة كلها .. كلمات رنانــة مدوية خلبت ألباب السامعين وسحرتهم ، فما أن فرغ منها حتى هبوا جميعاً وقوفــاً يصفقون ويهللون .

* * *

فأخذ آندي بيترز بذراع هيلاري قائلاً :

– هيا بنا إلى حديقة السطح لأنني بحاجة إلى الهواء النقي .

فقال لها وهما يتمشيان في الحديقة :

– هيا انفضي عنك سحر الرجل فقد كاد يفسد عقولنا .

– الحق أن كلماته سحرتني ، وإن كانت كلها عبارات جوفاء فارغة .

واستطرد بيترز يقول :

– إنني بعد ان استمعت إلى هذا الخطاب ازددت عزماً على ان أخرج من هنا .

– لكن كيف ؟. كيف ؟. إنني أراه طريقاً مسدوداً لا سبيل إلى ثغرة فيه !

– هل حسبتني خاملاً متواكلاً .. إنني ماض في تدبير خطتي .

– هل ستوفق ؟

– هذا ما أتوقعه .

– هل تنوي ان تأخذني معك ؟

فتأملها لحظة ثم قال :

– وهل يخامرك شك بهذا ؟

فسألته :

– وبيترتون طبعاً ؟

فتجهم وجهه وقال :

– صدقيني ، يا أوليف ، فيما أقول ، إن من الأسلم لبيترتون ، أن يبقى هنا .

فنظرت اليه باستغراب وقالت :

– من الأسلم أن يبقى هنا !. ماذا تقصد ؟. أتعني أن عقله قد اختبل وانه أصبح مجنوناً ؟

– إنه سليم العقل .. مثلي ومثلك تماماً .

– إذن فلماذا يبقى هنا ؟. العلك تعتقد انه خان وطنه وباع أسراره العلمية إلى المنظمة ؟. ألا تعلم انه متلهف للهرب ؟

فقال بيترز في أسى :

– لقد حذرتك وحسبي هذا .

ثم أردف :

– بالله عليك ما الذي يجعلك تهتمين بهذا الرجل ؟

وهمت بأن تصرخ فيه :

– لكنني لا أهتم بـه .. إنك أنت الوحيد الذي أهتم بـه لأنني .. لأنني أحبك .

ولكنها في اللحظة الأخيرة أمسكت بالكلمات التي كادت ان تنطقها ، واكتفت أن نظرت اليه نظرة تفيض أسى ومرارة .

* * *

قال لها بيترتون وقد عادت إلى جناحها :

– هل قضيت وقتاً ممتعاً مع صديقك الأمريكي ؟

فتضرج وجهها احمراراً وردت :

– أتراك تغار منه ؟ أنسيت انه كان رفيقي في السفر ؟

فضحك بيترتون وقال :

– لا ألومك على أية حال فإنه وسيم جذاب .

واستطرد يقول :

– وأنت أيضا إمرأة جميلة ، لم أفطن إلى ذلك من قبل لأنني مشتت العقل لا أستطيع ان أركز تفكيري على شيء .. هذا المكان يخنقني ويحطم أعصابي .

– ولكن الآخرين يعملون ويفكرون فلم لا تكون مثلهم .

– لأنهم جماعة من الحمقى ماتت مشاعرهم .

– لكن لا شك ان فيهم نفراً مرهفي الاحساس .

ثم أردفت :

– لم لا تتخير من بينهم صديقاً فتجد في صحبته ما يرفه عنك ؟

– إن مارشيسون هو صديقي الوحيد .

فقالت في دهشة واستنكار :

– حقاً ؟ ولكني لا أرتاح لهذا الرجل ، إنه يخيفني .

– توركيل يخيفك ؟ إنه رجل وديع مسالم كأنه طفل .

فعادت تقول في عناد :

– مهما يكن فإنه يخيفني .. ولكم أتمنى ان تقطع صلتك به .

– ولكن لماذا ؟. ما الذي تأخذينه عليه ؟. لماذا تكرهينه ؟. ما الذي يخيفك منه ؟

– لا أدرى . مجرد هاجس بنفسي .. مجرد إلهام .

الفصل السادس عشر

قال المفتش إيبلان :

ـ لا شك أنهم غادروا أفريقيا بالطائرة

فرد غيسوب :

ـ ليس الأمر مؤكداً

ـ ولكن الاحتمالات كلها تشير إلى هذا .. إننا جميعاً نعرف الجهة التي يقصدونها .

وهذا أيضاً أمر غير مؤكد ، فإذا كانوا قاصدين إلى هذه الجهة فما الذي يحملهم يتكبدون مشقة السفر أولاً إلى أفريقيا ، وبعد ذلك يسافرون إلى تلك الجهة ؟ إن من الأسهل عليهم أن يسافروا اليها رأساً من أوربا .

فقال ليبلان

ـ هذا صحيح ، ولكن لعلهم فعلوا هذا ليضللوا كل من يحاول أن يتعقب أثرهم ، إذ لن يخطر لأحد أن أفريقيا هي مقر الاجتماع .

بيد ان غيسوب ظل متشبثاً برأيه ، فقال :

ـ انني أعتقد أن في الأمر سراً خفياً ، فالمطار صغير الحجم لا يتسع إلا لطائرة صغيرة ، إذا عبروا بها البحر الأبيض استهدفوا لمخاطر لا داعي لأن يعرضوا أنفسهم لها ، وفضلاً عن ذلك ، فلا بد أن يهبطوا في اكثر من

مطار ليآتودوا بالبنزين . وفي هذا ، ما يسترعي الأنظـــار اليهم فينكشف أمرهم .. كلا يا عزيزي ليبلان . انني أعتقد أنهم لم يبرحوا افريقيـا .

فقال ليبلان

ـ ولكننا لم ندع مكاناً الا فتشناه .

فقال غيسوب :

ـ اننا افترضنا انهم سيعبرون البحر الأبيض ، ولذلك اتجهت أبحاثنـــا ناحية الجنوب ، فلم لا نعكس الأمر وغد بحثنا إلى الشمال ؟

ـ ولكن ما عسى تكون وجهتهم ؟ ليس في الشمال الا جبال شاهقة تمتد وراءها صحراء شاسعة بلاحدود

فغمغم غيسوب متأملاً :

ـ من يدري .. من يدري !

* * *

قال الرجل الأسمر الوجه الذي ينحدر من قبائل البربر :

ـ انك أقسمت يا سيدي أن تفي بوعدك .

فرد عليه اندرو بيترز :

ـ طبعاً سأفي بوعدي .

ـ وهل ستكون مكافأتي محطة بنزين في أميركا ، في شيكاغو ؟ هل أنت متأكد ؟

ـ اني متأكد يا محمد طالما استطعت أن تخرجنا من هنا .

ـ ان النجاح مرهون بارادة الله ..

- اذن دعنا نأمل أن تكون ارادة الله قد قضت لك بمحطة بـنزين في شيكاغو .. ولكن لماذا شيكاغوا بالذات ؟

- لأن شقيق زوجتي مقيم في اميركا ولديه محطة بنزين في امـيركا ، ولا أريد أن اكون دونه مقاماً .. لدينا هناك مال كثير وطعام وفير ونساء جميلات ، ولكن أميركا بلاد متحضرة .

وقال بيارز

- انك تدرك طبعاً انهم ان عثروا علينا فإننا ..

فقال محمد مقاطعاً :

- ان عثروا عليكم فالموت جزائي ، ولكنهم لن يمسوكم أنتم بسوء لأنهم في حاجة اليكم .

وتابع محمد:

- ومع ذلك فإني لا أخاف الموت .. ان الموت مكتوب على البشر يأتيهم من حيث لا يدركون . الموت هو قضاء الله .

فسأله بيارز :

- وهل وعيت تماماً ما أريده منك؟

- نعم يا سيدي .. على أن اصعد بك الى السطح بعد هبوط الظلام .. وأن آتيك بثياب مراكشية مشابهة تماماً للثياب التي أرتديها أنا والخدم .

- تماماً . واذا نجحنا فلك محطة البنزين الموعودة .

* * *

في ذلك المساء أقيمت حفلة ساهرة ، دار فيها الرقص والشراب ساعات متصلة ..

ورقص اندرو بيارز مع مس جينسون ، وكان يضمها الى صدره في رقة ،

وبدا انه كان يهمس في أذنها بكلمات ناعمة ويناجيها ، فقد كانت نظراتها تشع أحلاماً من وراء زجاج نظارتها المزدوج السميك ، وفي دورانها حول القاعة ، مرا بهيلاري ، فغمز لها بيترز بعينه خفية عن زميلته ، وأشاحت هيلاري بنظرها بعيداً ، وقد زمت عينيها استياء .

وقع بصر هيلاري على توم بيترتون وقد انتحى بتوركبل اريكسون جانباً من القاعة ، وهما منهمكان في الحديث .

وسمعت هيلاري صوتاً الى جانبها يقول :

– اتسمحين لي بهذه الرقصة يا اوليف ؟

وكان ماشيسون هو الذي يتوجه اليها بالخطاب ؟

وأجابت :

– يسعدني ان اراقصك يا سيمون .

وقال ينذرها :

– ولكن يجب أن احذرك من انني أجيد الرقص .

وابتسمت له هيلاري دون ان تعقب بكلمة ، ولكنها ركزت انتباههـا طوال الوقت حتى لا يطأ قدميها .

وقال لها ماشيسون وانفاسه تتابع لاهثة :

– الرقص يحتاج الى متابعة التدريب ، ولكني بكل اسف لا أرقص الا نادراً ..

ثم تطلع اليها ..

وقال مبتسماً :

– ما أجمل هذا الفستان ..

وادركت هيلاري على الفور انه لقن هذه العبارات دون شك من كتاب عتيق عن : « كيف تتحدث وانت ترقص » .

وأجابت :

– يسرني انه راق لك .

– انك طبعاً اشتريته من قسم الملابس هنا .

وكان هذا منه سؤالاً سخيفاً لا داعي له ، اذ من اين لها به الا ان يكون من قسم الملابس « هنا » !

واستطرد ماشيسون بعد لحظات وقد اشتدت انفاسه انبهاراً لفرط ما ادركه من التعب :

– انهم هنا يحسنون معاملتنا . كنت اقول لبيانكا بالأمس ان كل شيء متوافر هنا .. الطعام جيد وفير ، والأجر ضخم مجز ، ولسنا مطالبين بشيء من الضرائب ، اننا في الحق نعيش هنا حياة رائعة .

فسألته هيلاري :

– وهل تراها بيانكا حياة رائعة ؟

فقال في شيء من التردد :

– لقد خامرنا شيء من الضيق في البداية ، ولكنها ما لبثت ان الفت الحياة هنا ، واخذت تشغل فراغها بالنشاط الاجتماعي ، وكانت تتمنى لو انك شاركتيها نشاطها .

– اني امرأة منطوية على نفسي ، ولا يستهويني النشاط الاجتماعي .

– هذا عجيب .. فإن المرأة العصرية ، مولعة بأن تشغل نفسها بأي شيء .

ثم اردف :

– انني لا اجهل ان النساء اللاتي آثرن القدوم الى هذا المكان – من مثيلاتك انت وبيانكا – اقدمن دون شك على تضحية جسيمة ، فأنت مثلاً لست من العلماء ولا عمل لديك هنا ، وزوجك منشغل عنك طوال الوقت ، غارق في معمله بين انابيب الاختبار .. وقد قلت لبيانكا ان اوليف قد تضيق في البداية بهذه الحياة ، ولكنها لن تلبث ان تألفها وتعتاد عليها .

وانتزعها من خواطرها ان ظهر الدكتور نيلسون في صدر القاعة ولوح بيده .

فسكتت الموسيقى وكف الراقصون عن الرقص .

وقال الدكتور نيلسون يخاطب الحاضرين :

– ايها الأصدقاء والزملاء .. انكم ستضطرون غداً الى ان تلزموا جناح الطوارىء لا تخرجون منه ، فهناك بعثة قادمة لزيارة المستشفى ، وليس لهم طبعاً ان يشاهدوا احداً منكم ، ولكن الأمر لن يطول اكثر من اربع وعشرين ساعة ، فبمجرد انصرافهم تعودون الى سابق حريتكم ، وتجولون في ارجاء المكان كما تشاءون .

وعلى اثر هذه الكلمات انسحب من القاعة وعادت الموسيقى الى عزفها والحاضرون يرقصون .

ومال بيترز الى هيلاري يقول :

– اذن فغداً سنحبس في سجن خاص ، كأنما لا يكفينا هذا السجن الذي نعيش فيه .

* * *

في صباح اليوم التالي دوى جرس الانذار فهرعوا جميعاً الى قاعة المحاضرات ، ومن هناك تولت مس جينسون ارشادهم الى جناح الطوارىء .

مشت بهم في دهاليز متعرجة لا تنتهي ، وكان بيترز يسير متأبطاً ذراع هيلاري ، وقد اخفى في يده بوصلة صغيرة .

وقال لها :

– هذه البوصلة قد تهدينا الى الطريق فيما بعد حين تدعو الحاجة .

وانتهوا الى دهليز طويل توقفوا فيه ، وضغطت مس جينسون على زر في

الجدار ، فدار الجدار حول نفسه ، وانكشف عن فجوة كبيرة نفذوا من خلالها الى جناح الطوارىء .

واخرج بيترز علبة سجائره المصنوعة من غلاف القنبلة ، وتناول منها سيجارة ..

وقبل ان يشعلها ارتفع صوت الدكتور نيلسون قائلاً :

– ان التدخين ممنوع ايها الأصدقاء ؟

ورد بيترز معتذراً :

– آسف

وأعاد السيجارة إلى علبته ، ولكنه لم يعد العلبة إلى جيبه ، بل استبقاها في يده !

ودخلوا إلى قاعة فسيحة ، صفت الأسرة في ركنين منها ، ركن للرجال وآخر للنساء ، وفي ركن ثالث وضعت مائدة كبيرة وحولها المقاعد .. كما كان هناك بار كبير في الركن الرابع ، وسط القاعة ، فشغلته المقاعد والفوتيلات .

وقالت غيسوب تخاطب الحاضرين :

– ستجدون هنا كل ما تحتاجون اليه من شراب وطعام ، ولكن المقام لن يطول بكم في هذا المكان ، فما أن تتصرف البعثة حتى يباح لكم الخروج .

* * *

كانت القاعة بلا نوافذ ، ولكنها كانت مزودة بأجهزة التكييف ، كما كانت بها رفوف تكدست فوقها الكتب لمن يحبون القراءة .

ومال بيترز إلى هيلاري يقول هامساً :

– الجدران صماء بلا نوافذ حتى لا يفطن أحد في الخارج الى أن في هذا

الموقع قاعة فيها علماء من الذين اختفوا من كل أرجاء الدنيا .

وانقضى النهار في هدوء وسلام ، وأمضى الحاضرون وقتهم في القراءة أو الكتابة أو لعب الورق ، أو الحديث .

وأخيراً حانت ساعة النوم ، فنهضت هيلاري واقفة وحيت من معها ، معتذرة بأنها تريد أن تأوي إلى فراشها .

على أنها مشت عبر القاعة بضع خطوات حتى لمست يد ذراعهـــا ، فاستدارت ورأت إزاءها عربياً أسمر الوجه يرتدي تلك الثياب المزركشة التي يلبسها الخدم .

وقال لها الرجل :

– أرجو أن تأتي معي ..

فسألته :

– آتي معك ؟ ولكن إلى أين ؟

فلم يزد على أن قال :

– أرجو ان تتبعيني يا سيدتي

وتسمرت مكانها برهة مترددة .

وللمرة الثانية أحست بيد العربي على ذراعها وهو يقول مكرراً :

– أرجو أن تتبعيني يا سيدتي .

ورأت ان لا مناص من الاذعان ، فمشت وراء الرجل بضع خطوات ، ثم استدارت تتطلع إلى خلفها .

ورأت بيتر ر يتابعها بأنظاره ، وكأنما يريد ان يلحق بها .

ومشى بها الرجل إلى باب سري في ركن القاعة ، وفتحه بمفتاح صغير في جيبه .

ثم خرج بها إلى دهليز قصير ، وفتح باباً آخر انكشف عن مصعد مخبأ في الجدار ، ودعاها إلى الدخول

وقالت له هيلاري والمصعد يشق بها الطريق :

– ولكن إلى أين تـذهب بي ؟

– إلى « السيد » يا سيدتي ، وهذا شرف عظيم .

– اتقصد المدير ؟

– بل « السيد » نفسه يا سيدتي .

وتوقف المصعد ، وخرجت منه هيلاري في اعقاب الدليل . فاجتاز بهـا ردهة فرشت بالسجاد ، ثم فتح باباً في صدر الردهة ، ودعاها للدخول .

كانت الغرفة مؤثثة على الطراز الشرقي ، صفت بهـا الأرائك المنقوشة ، ووضعت فوقها الوسائد .

وهناك على اريكة في صدر القاعة كان هناك رجلاً جـالساً يدخن في هدوء .

وتطلعت الى وجه الرجل ، ثم حملت عينيها دهشة ، فما كان هذا الرجل إلا المليونير اليوناني : مستر اريستيد .

الفصل السابع عشر

قال مستر أريستيد :

– إجلسي يا سيدتي العزيزة.

فأومأ بيده إلى إحدى الآرائك فمشت اليها هيلاري في صمت مأخوذة مشدوهة كأنها في حلم ، واستوت جالسة .

فأطلق المليونير ضحكة خافتة مبتورة وقال :

– إنك مندهشة طبعاً ، فليس هذا ما كنت تتوقعين .

فردت هيلاري :

– كلا بالطبع .. فلم يخطر لي أبداً ان .. لم أكن أتصور ان ..

وأمسكت لا تتم ما كاد يجري به لسانها .

إذن فمستر اريستيد هو منشىء هذا المركز العلمي ، انه صاحب كل تلك التدابير ، ومن ملايينه المكدسة ينفق على الأبحاث الجارية .

فقالت هيلاري :

– إذن فكل هذا ملكلك؟

– نعم يا سيدتي .

– والمدير ؟ ما شأنه ؟

– مجرد موظف يتولى إدارة العمل والقاء المحاضرات واستقبال البعثات

التي تزور المستشفى .

فلاذت بالصمت وغرقت في خواطرها .

وقال لها :

– لديك قهوة تركية رائعة ، أو غيرها من المشروبات إن شئت .

ثم استطرد :

– إنني رجل محب للخير والإحسان ، كما انني غني جداً كما تعرفين .. إنني من كبار الأغنياء في العالم ، بل لعلي أغنى رجل في الدنيا .. والثراء يفرض على صاحبه التزامات معينة حيال الانسانية ، ولذلك أقمت هذه المستعمرة للمجذومين ، وزودتها بأعظم العلماء والأطباء لدراسة الجذام ، واكتشاف علاج ناجح له ، وقد وفقنا بهذا الى حد كبير فقد شفيت حالات كثيرة ، وإن كانت هناك بعض حالات استعصت على الشفاء ، وليس هذا فقط انني أنشأت مركزاً آخر لأبحاث الجدري ومركز ثالثاً لأبحاث السرطان .

ونفث المليونير بضعة أنفاس من سيجارته ثم تابع :

– إن الجذام مرض رهيب ، وفيما مضى كان المجذومون يطردون الى خارج المدن حيث يتركون في العراء حتى توافيهم المنية . أما اليوم فهنا في مركز الأبحاث الذي أنشأته يعالجون ويشفون .

وسكت مستر أريستيد هنيهة ثم استطرد :

– لكن ليست المراكز العلمية هي الهدف الذي أرمي اليه .. ان مستعمرة الجذام ليست إلا ستارا أخفي وراءه « مجمع العلماء » .

فتساءلت هيلاري :

– مجمع العلماء ؟

– نعم .. اني أجمع العلماء هنا في ركن خفي من المستعمرة ليقوموا بأبحاث سرية من نوع آخر .

– ليخترعوا لك أجهزة التدمير .. لكن لماذا ؟ . لماذا تريد أن تدمر الدنيا

يا مستر أريستيد ؟

– أنا أريد ان أدمر الدنيا يا عزيزتي ؟ انك بهذا تخطئين في حقي يا سيدتي إنني رجل محسن محب للخير ، ومع ذلك فأنا في نفس الوقت « رجل أعمال » .

فنظرت اليه باستغراب قائلة :

– رجل أعمال ؟ ماذا تعني ؟

– حين تزيد الثروة عن حدها تصبح شيئاً مزعجاً يحطم الأعصاب ، فيسعى المرء إلى أشياء يرفه بها عن نفسه . وقد اتجهت الى جمع التحف واللوحات حتى ضقت بها ، ثم هويت جمع طوابع البريد . فكانت مجموعتي أشهر وأعظم مجموعة في العالم . أما اليوم فإنني أجمع « العقول » .

فرددت وراءه :

– العقول !.

– نعم ، فهي أمتع هواية مارستها .. انني أجمع عقول العباقرة ، ورويدا رويدا ستكون لدى في هذا المركز أعظم العقول العلمية في الدنيا ، لكني لا أنتقي الا الشبان وحدهم . وسيحل يوم ينتبه فيه العالم على انه أصبح خالياً من العلماء . ولم يعد لديه منهم الا المسنون والعجائز . وعندئذ يتجه العالم الي ويتوسل ان أمده بمن لدى من علماء شبان . ولما كنت رجل أعمال كما قلت لك فإني لن أتردد في ان أبيع للدول « علمائي » .

– تبيع لهم علماءك ؟ أهم سلعة في نظرك ؟

– ولم لا يكونون ؟

– اذن فهذا كله مشروع تجاري بحت لا شأن له بالسياسة .

فقال مستر اريستيد :

– السياسة ؟. اني رجل أمقت السياسة والسياسيين .

– ألا تريد ان تسيطر على العالم وتحكمه ؟

– وما يعنيني من العالم حتى أشغل نفسي به ؟. انني لا أريد ان أكون الهاً

أدير العالم .. انني رجل مؤمن .. انني مجرد تاجر ، والعلماء هم تجارتي .. انهم السلعة التي أتعامل فيها .

– واذن ، فما هذا الذى سمعته عن الشبـاب وحكم الشباب ، وان المستقبل لهم ؟

– مجرد كلمات جوفاء تخلب البابهم وتستهويهم ، فهذه هي النغمة التي يحبها الشباب .

– لقد ظننت انك تريد منهم ان يخترعوا لك آلات الدمار والهلاك حتى تهدد الدول بما لديك وتتولى حكم الدنيا .

فأغرق مستر اريستيد في الضحك وقال :

– هذا شيء لم يخطر لي ببال .

– لكن كيف استطعت ان تجمع كل هؤلاء العلماء هنا ؟

– اني « أشتريهم » كا يشترى الانسان سلعة معروضة في السوق .. أشتريهم بالمال والأحلام ، فمعظم الشبان يعيشون في الأوهام والأحلام ، وما علي الا ان أجاريهم في أوهامهم فيتهافتون علي وأنقدهم اجراً ضخماً .

– اذن فهذا تعليل ما لاحظته عليهم من انهم يعتنقون عقائد مختلفـة ، ولا تربطهم عقيدة سياسية واحدة ، فهذا الأمريكي بيترز يسارى متطرف ، وايريكسون رجل الاحلام والمثل العليا والانسان المتفوق السوبرمان ، أما هيلدا نيدهايم ففاشيستية متحمسة تملك قلباً من الصخر ، مجرداً من المشاعر. أما الدكتور بارون ..

فقاطعها اريستيد :

– الدكتور بارون رجل جشع لا يعبد الا المال ، وقد نقدته ما يسد جشعه .

ثم أردف وهو يضحك :

– انك امرأة ذكية يا سيدتي ، فرغم قصر المدة التي قضيتها مع هؤلاء

العلماء فإنك استطعت ان تنفذي إلى بواطن نفوسهم .. نعم .. انك امرأة شديدة الذكاء ، ولعلك لا تعلمين اني إنما ذهبت إلى فزان لأراقبك عن كثب .

فتساءلت هيلاري :

– لكن لماذا ؟. ما الذي دفعك الى الاهتمام بأمري .

– إن العباقرة الذين يضمهم هذا المركز أفذاذ في أبحاثهم ، لكنهم غير اجتماعيين وصحبتهم لا تلذ لأحد ، ونساؤهم غبيات يثرن الضجر والملل ، وأنت الوحيدة الذكية بينهن.

واستطرد :

– إني عادة لا أحبذ وجود الزوجات هنا إلا إذا دعت الضرورة ، كأن أرى الزوج عاجزاً عن الاكتشافات والاختراعات وتركيز الذهن لفرط قلقه على زوجته التي تركها خلفه . ولقد كان هذا شأن زوجـــك ، منذ حل بهذا المكان ، ولهذا أتيت بك ، ولقد خاب ظني في زوجك ، يا سيدتي العزيزة .

فقالت هيلاري :

– لكن لا بد ان يحدث هذا من حين لآخر ، لأن العالم لا يمكن أن يبتكر ويخلق الا اذا شعر انه حر طليق . وهم جميعاً يشعرون دون شك ، أنهم يعيشون سجناء خلف الأسوار والقضبان ، ولهذا لا بد أن يتمردوا ويثوروا من حين لآخر .

– لكن العصفور لن يثور اذا زودناه في قفصه بكل ما يحتاج اليه : الطعام والماء ورفيقته .. انه لا يلبث أن ينسى الدنيا الخارجية ، وسينسى أنه كان حراً في يوم من الأيام . ان الحرية مجرد عادة .

فردت بصوت مرتعد :

– انك تخيفني بهذه الآراء.

ثم أردفت :

ـ لكن العالم الذي سوف تبيعه قد يرفض ان يعمل في خدمة سيده الجديد وقد يتمرد ويسعى الى أن يكون حراً ، فالحرية ليست « عادة » كما تزعم انت بل هي « غريزة » كامنة في النفس .. حتى الطفل الصغير يسعى الى الحرية ، ويتمرد على أوامر امه .

ـ أما سمعت أبداً يا عزيزتي عن عملية « غسل المخ » ؟. إذا شعرنا بأن الرجل بدأ يثور ويتمرد فلا أسهل من ان نجري له عملية « غسل مخ » ، فينقاد وديعاً كالحمل الطيع . هناك عقارات يحقن بها الانسان فتؤدي الى هذه النتيجة .

ـ لكن ألا تخشى أن يؤثر هذا على قدرته على التفكير وان يفقد عبقريته أو بعضها على الأقل ؟

ـ ان غسل المخ لا يؤثر اطلاقاً على القدرة على التفكير ، كل ما هناك انه يجعل المرء وديعاً مسالماً مستكيناً .

فهتفت هيلاري :

ـ هذا فظيع !. هذا رهيب !.

ـ لكنه مفيد .. انه يجعل الرجل بلا هموم او قلق .

فهزت رأسها في عناد وتشبث وقالت :

ـ لا زلت أعتقد أن عملية « غسل المخ » تشل القدرة على التفكير .

ـ نحن على أية حال ، ماضون باجراء التجارب ، وقد وصلنا الى نتائج مبشرة .

ـ وهل تجرون التجارب على الحيوانات ؟

فضحك وقال :

ـ حيوانات !. نحن نجريها على البشر !

فهتفت هيلاري باستنكار :

ـ البشر !

ـ طبعاً ، فبعض العلماء الذين حضروا هنا أثبتوا أنهم فاشلون ، ولم يكتشفوا جديداً ، فأى نفع لهم عندنا ؟

ـ لكن أمن حقكم أن تتخذوهم حقلاً للتجارب ؟

ـ ولم لا ؟. لصالح الانسانية .. نحن هنا ، نضحي بالفرد من أجل المجموع .

فنظرت اليه هيلارى في ذهول .. هذا الرجل لا بد ان يكون مخبول العقل .

فقال لها أرستيد :

ـ لكن ما الذى يعنيك انت من الامر كله ؟ ان الذى يهمك هو زوجك دون الآخرين .. أتخشين ان أجرى عليه تجاربي ؟

ـ هذا ما أتوقعه ما دمت تجده « غير منتج » .

ثم أردفت :

ـ أتوسل اليك ان تطلق سراحه وتعيده لبلاده .

فضحك اريستيد في سخرية وقال :

ـ أعيده لكي يفشي سرى ويتحدث بما رأى هنا .

ـ سأطلب اليه ان يقسم على الكتمان واذا أقسم فسوف يفي .

فاشتدت ضحكته سخرية وقال :

ـ انه رجل لا يفي بالعهد ، فقد فشى الي كل ما يعرف من أسرار علمية لقاء ما نقدته من مال .

ثم استطرد :

ـ ومع ذلك فإني على استعداد لان أطلق سراحه ولكن على شرط .

ـ وما يكون هذا الشرط ؟

ـ أن تبقي أنت هنا رهينة لدينا حتى لا يفشي اسرارنا خوفاً عليك مما قد يصيبك . فهل انت على استعداد لقبول هذه التضحية ؟

وهمت بأن تقول له ان بيترقون بالنسبة اليها رجـل غريب ، وانه ليس زوجها ، وان عينيها لم تقع عليه الا يوم اتت المركز العلمي .

لكنها بدلاً من هذا قالت :

ـ نعم ، اني على استعداد البقاء .. رهينة كما تقول انت .

فقال اريستيد :

ـ وفي هذا ما يسعدني .. فأنت امرأة ذكيـة ، وانا أحب الذكيات من النساء .

وسرح ببصره هنيهة ثم قال في شرود :

ـ ثم ان لك شعراً احمر ، وقد كانت زوجتي ذات شعر أحمر ، فما رأيتك حتى أهجت في نفسي عواطفي التي ماتت وخمدت .. نعم .. انني أشعر لاول مرة منذ سنوات طويلة بأن جـذوة الحب بدأت تشتعـل في قلبي من جديد ، وسوف أجعلك أسعد النساء .

فتفرست فيه لحظة ثم هتفت :

ـ كلا .. كلا .. لا اريد ان أبقى .. اريد ان ارحل عن هذا المكان .. اتوسل اليك ان تطلق سراحي .

فرماها اريستيد بنظرة طويلة ثم قال :

ـ بل ستبقين هنا .. الى الابـد !. نعم .. انت وزوجك ، لن ترحـلا !.

الفصل الثامن عشر

أفاقت هيلاري كرافن في جوف الليل على هدير طائرة يشق سكون الليل ، وارتكزت على مرفقها تنصت إلى الأزيز .

ثم نادت على توم الذي كان مستغرقاً في نومه ، على سرير آخر بالقرب منها ..

وقالت له وقد أفاق :

– توم .. أتسمع أزيز الطائرة ؟ إنها تطير منخفضة فوق البناء ..

فقال وما زال النعاس يغالبه

– إن الطائرات لا تفتأ تروح وتغدو في هذه المنطقة .

– ما يدريني انها طائرة جاءت لكي ..

ثم بترت جملتها ولاذت بالصمت ..

ولم يسألها توم عما كانت بسبيل التفوه به ، إذ ما لبث أن غرق في النوم من جديد .

ولبثت هيلاري صاحية وهي تستعيد إلى ذهنها دقائق ذلك الحديث الذي جرى بينها وبين اريستيد .

لقد هام بها العجوز حباً ، ولم يتردد في أن يصارحها بالمشاعر التي

يجيش بها فؤاده .

فهل تستغل هذا الوضع وتلعب بهذه الورقة ؟

عندما يجيء في المرة التالية ويدعوها إلى لقـائه سوف تستدرجـه إلى الحديث عن زوجته ذات الشعر الأحمر .

إن الذي اجتذبه اليها لم يكن جمالاً خلاباً ، أو قواماً ساحراً ، وإنمـا تاج من الشعر الأحمر .

فهو شخص عزوف عن النسـاء .. بعيد أن يفكر في الجنس ، ولكنه يستعيد « فيها » ذكريات الشباب التي اندثرت .

إنها بشعرها الأحمر ، تذكره بتلك التي أحبها على عهد الصبا والشباب ..

فهل تراها تستطيع أن تستغل فيه هذه النزوة لكي تحمله على أن يصحبها معه إلى العالم الخارجي

لا بد أن أجد وسيلة للفرار

طالما قالت في نفسها :

– لا بد أن أخرج من هذا السجن .

لا بد أن أجد وسيلة للفرار ..

فهل يكون « أريستيد » هو طريق الهرب !

* * *

قال المفتش لبيلان وقد أشرق وجهه :

– رسالة .. ها نحن أخيراً نتلقى رسالة ؟

كان سكرتيره قد دخل عليه يحمل اليه ورقة مطوية .

تناولها منه ليبلان وفضها ، وجرت عليها عيناه سريعاً ، ثم قال في اذعمال :

– هذا تقرير من أحد الطيارين الذين عهدت اليهم بأن يمسحوا الصحراء في المنطقة المتاخمة لجبل أطلس .

فتساءل غيسوب :

– وما الذي جاء في التقرير

فأجاب :

– إنها مكتوبة بالشفرة ، ويقول فيها أنه عند طيرانه فوق موقع معين في المنطقة الجبلية ، تلقى إشارة لاسلكية بطريقة « المورس » وقد كررها مرسلها ثلاث مرات ، وهذا نص الاشارة اللاسلكية .

ويسط أمام جيسوب ورقة لا تحمل إلا هذه الكلمات :

« كوج جذام سيل » .

واستطرد المفتش يقول :

– أما الكلمة الأولى « كوج » فهي كلمة السر التي نعرف بها أن الرسالة اللاسلكية صادرة من أحد رجالنا .. وليست مدسوسة علينا . والكلمة الثالثة « سيل » شفرة سرية معناها « لا أعلم شيئاً » ، والكلمة الوسطى جذام معناها واضح .

فسأل غيسوب :

– جذام .. هل لديكم في هذه المنطقة مصحات الجذام ؟

فرد الشرطي الفرنسي :

– لست أدري .. ومع ذلك فيمكننا أن نتأكد .

وجاء بخريطة نشرها على المكتب ، وانكب عليها يفحصها ، وأومـأ بإصبعه إلى موضع فيها وقال :

– هذه هي المنطقة التي كان طيارنا يحوم فوقها .

ثم أخذ يقرأ البيانات المدونة بهامش الخريطة وعاد يشير إلى نقطة ملونة باللون الأحمر وقال :

– هنا .. أنظر .. إنها مستعمرة للجذام .

– ومن صاحبها ؟ من الذي يديرها ؟ الحكومة الفرنسية ؟

– لا أعلم ، سوف نرى ، لحظة واحدة .

وغادر غرفته ، وعاد بعد لحظات يحمل مجلداً ضخماً أخذ يقلب صحائفه حتى استقر على صفحة معينة وقال :

– هاك ما نبحث عنه . في هذا المكان المهجور من الصحراء مستعمرة للجذام أنشأها وينفق عليها رجل محسن محب للخير من كبار الأغنياء ، وهي تضم مركزاً علمياً لأبحاث الجذام والسرطان والجدري .

وفي المستعمرة نحو مـــائتين من المجذومين يشرف على علاجهم أشهر الأطبـــاء ، كما يقومون ببحث علمي يهـــدفون بـــه اكتشاف دواء ناجع للجذام .

وهـــذا المركز العلمي فوق الشبهات ، كما انه تحت رعاية رئيس الجمهورية نفسه .

فقال غيسوب

– عظيم .. عظيم جداً . وماذا لديك أيضاً من بيانات ؟

واستطرد ليبلان :

– ومن حـــين لآخر تقوم بزيارة هذا المركز العلمي بعثـــات من كبار الشخصيات ومشاهير الأطباء ، فتتفقده وتطلع على ما أحرزه من تقـــدم علمي .. ثم تعود هذه البعثات وهي تردد أعظم الثناء دون أن تستريب في شيء .

– هذا لأنهم يرون ما يراد لهم أن يشاهدوا ، ولكنهم لا يرون ما لا يراد لهم أن يشاهدوا : انني أشعر أن هذا المركز العلمي ما هو إلا

ستار يهدفون به إلى إخفاء نشاطهم المريب ، فـــلا أصلح من المكان الشرعي المحترم لاخفاء عمل غير مشروع وغير محترم .

فقال ليبلان في شيء من التردد :

– هذا محتمل .. في مثل هذا المكان القصي المهجور الذى يقع في قلب الصحراء ، يمكن تخبئة العلماء الذين اختفوا مـــدة أسبوعين أو ثلاثة حتى يواصلوا رحلتهم بعد ذلك إلى محطة الوصول المجهولة .

فقال غيسوب :

– إنني أعتقد ان هذا المركز العلمي هو نفسه محطـة الوصول .. هو نهاية الرحلة ..

فسأل المفتش :

– وما يحملك على هذا الظن ؟

– لأنه لا داعي لإنشاء مستعمرة « يحبس » فيها المجذومون ، فإن الجذام اليوم ، مع أساليب العلاج ، يمكن أن يعالج في البيت ..

فيما مضى ، كانوا يعلقون في رقبة المجذوم جرساً فـــإذا مشى في الطرقـات أرسل الجرس رنيناً . فيتنبه الناس ويبتعـدون عن طريق المصاب بهذا الداء .

أما اليوم فالأمر يختلف ، ولا داعي لإنشاء مستعمرة لعزل المصابين فيهـــا ، ولذلك أعتقد ، أن لهذا العمل الانساني المتسم بالخير ، هدفاً آخر ..

إن هذه المستعمرة ليست الا مجرد واجهة تستر وراءهـا غرضاً خفيـــاً ..

فقال ليبلان ..

وما زال التردد يساوره

– ولكن المليونير أريستيد ، صاحب هـــذه المستعمرة رجل فوق

الشبهات .. انه من أكبر الأغنيا في هذا العصر ، ومن كبار المحسنين المحبين للخير .. إن له مستشفيات خيرية في باريس وفي ليون .

– وهل نسيت ان اريستيد كان موجوداً في فزان في الوقت الذي كانت فيه أوليف بيترتون موجودة هناك ؟

– اكان هناك حقاً ؟ اذن فالأمر غريب !

فرد غيسوب :

– بل غريب جداً ياعزيزي

وران الصمت لحظة عليهما!

وأخيراً قال ليبلان :

– انها لمخاطرة جسيمة أن نتعرض لمستر اريستيد دون دليل نستند اليه ، ان له نفوذاً لا يمكن ان نتصور مداه ، ان له اصبعاً في جميع المنشآت والمؤسسات ، والدوائر الحكومية ، والبنوك ، والصناعات الرئيسية ، ومصانع السلاح ، وشركات النقل ، بإيماءة واحدة تسقط الحكومات وتفلس البنوك والشركات .

واستطرد المفتش في شرود :

– انه يعيش في قصره في اسبانيا منزوياً متباعداً عن الناس .. ولكنه بملايينه يحرك الدولة ويسيطر عليها .

الوزراء جميعاً مجرد دمى مشدودين الى خيط بين أصابعه ، فإذا شد الخيط تحركوا .

واذا أرخاه سكنوا جميعاً ، وجمدوا مكانهم ..

انه القوة المحركة المختفية خلف الستار – فكيف يمكن أن نواجهه ونتحداه ؟

يجب ان يتوافر لدينا دليل .. اى دليل قبل أن نخطو خطوة واحدة .

فقال غيسوب :

– هون عليك يا صديقي .. إن الدليل ، لن يعوزنا في النهاية .

فقال ليبلان في وجوم :

– لو فشلنا ، فسوف نطرد – أنت وأنا – من عملنا ، شر طردة .

فرد غيسوب في سكون :

– كن مطمئناً يا صديقي .. اننا لن نطرد ، بل سوف ننتصر .

الفصل التاسع عشر

أخذت السيارة تهدر وهي تزحف على مهل ترتقي التل في طريقها إلى مستعمرة الجذام ، وأمام الباب الحديدي توقف الركب .

كانت أربع سيارات ، في الأولى منها أحد الوزراء وبجانبه سفير أميركا في باريس ، وفي الثانية قنصل انجلترا في مراكش وأحد أعضاء البرلمان الفرنسي ومدير شرطة باريس . أما السيارة الثالثة فكانت تضم عضواً سابقاً في اللجنة الملكية ورئيساً سابقاً في المحكمة العليا مع اثنين من رجال الصحافة الذائعي الصيت ..

على حين كانت السيارة الرابعة تقل اثنين من أشهر رجال المخابرات ومعهما المفتشان ليبلان وجيسوب .

وأسرع السائقون يفتحون أبواب السيارات ، ونزلت منها هذه النخبة الممتازة من الزوار .

وغمغم الوزير بصوت خافت :

– أرجو ان تكون جميع الاحتياطات قد اتخذت ، تجنباً للعدوى !

فرد المفتش ليبلان :

– كن مطمئناً ، يا سيدي الوزير ، فقد اتخذت جميع الاحتياطات ،

كما اننا لن نقترب منهم ، بل سنزام على البعد ، وهم خلف الأسلاك الشائكة .

وبدا الارتياح على وجه الوزير ، قال السفير الأمريكي شيئاً عن طرق الوقاية الآمنة ، وكيفية الحيلولة دون تسرب العدوى باتباع الأساليب الطبية الحديثة .

وفتحت البوابة الضخمة على مصراعيها ، وفي المدخل كان نفر من موظفي المستعمرة في انتظار الضيوف للترحيب بهم ، وعلى رأسهم مدير المستعمرة ونائب المدير واثنان من الأطباء .

وبعد تبادل التحية قال الوزير :

– أرجو ان يكون عزيزي مسيو أريستيد قد بر بوعده فلم يعقه شيء عن الحضور .

فرد نائب المدير :

– لقد طار مستر أريستيد بالأمس آتياً من اسبانيا ، وهو ينتظركم في مكتبه يا سيدي الوزير ، فهلا تفضلتم بمرافقتي ؟

وتقدم نائب المدير الركب والجميع في أعقابه .

واستدار الوزير ببصره إلى اليمين ، ورأى المجذومين يغدون وراء القضبان المزودة بالأسلاك الشائكة ، وهم يحدقون في الضيوف كأنهم حيوانات حبيسة .

فسرى الاطمئنان إلى قلبه إذ كانت فكرته عن مرض الجذام هي نفس العقيدة المرعبة التي سادت القرون الوسطى .

وكان مستر اريستيد في انتظار ضيوفه في مكتبه الفخم ، الفاخر الرياش .

رحب بزائريه في حرارة ، وأبدى اغتباطه بزيارتهم لتفقد المستشفى ومعامل الابحاث ، والاطلاع على أحدث الاكتشافات التي وصل اليها الباحثون

في ميدان العلاج .

ثم أمر بتقديم مختلف المشروبات إلى ضيوفه .

وقال أحد الصحفيين المرافقين للبعثة :

– الحق انه عمل رائع ، يا مستر اريستيد ، هذا الذي تقومون به هنا .

فأومأ اريستيد برأسه وقال :

– يا سيدي ، إنني فخور بهذا المكان .. إنه هديتي إلى الانسانية ، وما بخلت يوماً على الابحاث التي تجري هنا ، بأي قدر من المال .

وقال أحد أطباء المستشفى في حماس وانفعال :

– إن هذا المركز العلمي هو أقصى ما يطمح اليه العلماء ، فهو مزود بأحدث الاجهزة العلمية ، ومن حسن الحظ اننا استطعنا أن نتوصل إلى نتائج باهرة .

فقال اريستيد في نبرة المسيحي المؤمن :

– كان من توفيق الله علي ورضاه ان أحرزنا شيئاً من النجاح .

ومال عضو البرلمان على اذن رئيس المحكمة العليا السابق ، وقال هامساً :

– هذا العجوز المنافق يتظاهر بالتقوى والورع ، والله يعلم عدد البيوت التي خربها بمضارباته . إنه يستنزف دم الناس باحدى يديه ويحسن باليد الاخرى .

فقال القاضي القديم مغمغماً:

– إن أعظم الاكتشافات العلمية اكتشفت دون حاجة إلى مثل هذا البذخ والاسراف .

وقال مستر اريستيد وقد فرغوا من تناول المشروبات :

– إنه ليسعدني أيها السادة ان تتناولوا الطعام معنا ، وسينوب الدكتور فان هايديم عني في الترحيب بكم ، لانني أتبع نظاماً غذائياً يحول دوني ومشاطرتكم الطعام . وبعد ذلك يمكنكم ان تتفقدوا المركز العلمي أن تتطلعوا على ما تشاءون ، وان توجهوا الى الدكتور فان هايديم ما يطيب لكم من أسئلة .

وصحب الطبيب ضيوفه إلى قاعة الطعام .

وكانت ألوان الطعام شهية وفـــاخرة ، وأبدى الوزير ثنـاءه وتقديره .

وقال الدكتور فان هايديم :

– إننا نولي الطعام عناية كبيرة حتى لا يشعر أحد من علمائنا أو مرضانا بأي نقص .

فالفاكهة والخضروات تصل الينـــا بالطائرة مرتين في الاسبوع ، ولدينا ترتيب خاص بالنسبة للدواجن واللحوم ، كما ان لدينا ثلاجات ضخمة نحتفظ فيها بالمؤونة .

وقـدمت مع الطعام أنبذه معتقـة من أفخر الانواع ، ثم قدمت القهـوة التركية في النهاية . وبعد ذلك بدأت البعثة في تفقد المركز العلمي ، واستغرقت الزياره أكثر من ساعتين .

وكان الدكتور فان هايديم بادي الاستعداد للاجابة على أي سؤال ، وشرح كل ما يستغلق على الضيوف .

كان الوزير أثناء الجولة في دهاليز المستشفى وقاعـــاتها يتقدم الموكب وبجانبه المضيف فان هايديم ، يتبعهم الآخرون .

على حين تعمد جيسوب وليبلان أن يتخلفا الى الوراء وان يسـيرا في نهاية الموكب .

وأخرج جيسوب من جيب صديريتـه ساعة ضخمـة تطلع فيها ثم هز

رأسه صامتاً .

فقال له ليبلان :

- هل وجدت شيئاً ؟ ما من علامة على الاطلاق ؟

وهز جيسوب رأسه نفياً وأعاد الساعة إلى جيبه .

ومن حين لآخر كان جيسوب ينظر في ساعته ، وليبلان يطرح عليه نفس السؤال :

- أما من علامة ؟

ويأتيه نفس الرد :

- لا شيء ! . لا أثر يدل على وجودهم هنا .

- لا شك انهم نقلوهم إلى موضع بعيـــد منعزل ، حتى لا نلتقي بهم أثناء الجولة .

فتساءل ليبلان :

- إذن فكيف نحصل على الدليل إننا دون دليل سنجد أنفسنا عاجزين عن اتخاذ أي تدبير .. انك ترى انهم جميعاً مبهورون بما يشاهدون ، الوزير والسفير الأمريكي والقنصل البريطاني .. إنهم جميعاً مؤمنون بأن اريستيد رجل عظيم وفوق الشبهات .

فقال جيسوب باقتضاب :

- قبل ان نغادر المركز سيكون لدينا الدليل المنشود .

فهز ليبلان كتفيه وقال :

- إنك يا صديقي شخص شديد التفاؤل .

فرد جيسوب :

- هل تعلم سر الساعة التي أحملها ولا أفتأ أتطلع اليها ؟ إنها أحدث الاختراعات العلمية يا عزيزي ليبلان .. إنها ليست مجرد ساعة عادية ، وإنما تضم في داخلها جهاز استقبـال دقيق الحجم يتلقى إشـارات لاسلكية من

جهاز آخر مداه مئة متر . ولا زلت أتوقع ان أتلقى هذه الذبذبة اللاسلكية من زميل موجود داخل المبنى ، إلا إذا كان يبعد عنا أكثر من مئة متر ، إذ يستحيل أن تمتد الذبذبة الى أكثر من هذه المسافة .

ــ إذن فهذا هو الدليل الذي تترقبه ؟

ــ تماماً .. ولم أفقد الأمل حتى الآن .

فقال ليبلان :

ــ ولكن الوزير لن يأخذ بهذا الدليل .. إنه يريد دليلاً قاطعاً ، لا مجرد ذبذبة في الهواء .. إنه يريد ان يرى أمامه شخصاً حياً يقول له انه كان محبوساً في هذا المركز وانهم احتجزوه هنا .

فرد جيسوب :

ــ سوف أقدم اليه هذا الشخص الحي .

ثم ما لبث ان أردف :

ــ ومع ذلك فإنني لا أعتمد في إثبات نظريتي على الوزير أو السفير أو عضو البرلمان ، لأن لرجال السياسة حساسية خاصة يشعرون معها بالحرج لأي تصرف يبدر منهم .

فسأل ليبلان :

ــ وعلى من تعتمد إذن ؟

ــ على رجل عجوز محدودب الظهر ، ثقيل السمع ، ضعيف البصر .

فضحك ليبلان وقال :

ــ آه ! لعلك تقصد رئيس المحكمة العليا السابق ؟

ــ تماماً .. إنه رجل عرك الحياة وعركته ، ولطول عهده بالقضاء أصبحت له أنف حساسة تشم بسهولة رائحة عفنة ، وإذا استراب في أمر فلن يقعده شيء عن متابعته وتعريته والكشف عنه ..

انه رجل علمه منصب القضاء ان ينصت ، وأن يتابع الانصات

حتى يقع على الدليل .. هذا الرجل هو الذي سيؤازرني في موقفي ضد مستر أريستيد .

* * *

كانت جولة الضيوف قد انتهت بهم الآن مرة أخرى الى مكتب أريستيد وقدمت اليهم المشروبات من جديد .

وهنأ الوزير مستر أريستيد بالعمل العظيم الذي يؤديه للبلاد ، وانضم السفير الأمريكي يزجي الثناء .

وكان عندئـذ أن دار الوزير ببصره فيما حوله ، وقال بلهجـة تتسم بالعصبيـة :

– والآن ، أظن أيها السادة ، انه قد حان الوقت لكي نودع مضيفنا العزيز .. فقد شاهدنا كل ما نريده ، ولم يعد لدينا شيء آخر يستحق المشاهدة .

وضغط الوزير على كلمات الجملة الأخيرة كأنما يقول لجيسوب وليبلان : «ها أنتم قد رأيتم أنكم كنتم واهمين » .

ثم استطرد :

– إن هذه المؤسسة من أعظم ما شهدت في حياتي ولا نظير لها في العالم . والآن إسمح لنا يا سيدي العزيز ان نودعك وان نكرر الشكر .

وكانت هذه العبارات حاسمة قاطعة توحي بما يجول في ذهنه .. كأن يريد ان يقول :

– لقد انهارت شكوككم أيها السادة .. ها نحن قد طفنا بجميع أرجاء المبنى ولم نشهد أثراً لهؤلاء العلماء الذين زعمتم انهم مساجين خلف هذه

الجدران ، فهل طاروا في السماء ، أم انشقت الأرض وابتلعتهم ؟ إني الآن مرتاح الضمير وأستطيع ان أبرح المكان مطمئناً .

وقبل ان يهم الوزير قائماً ارتفع صوت من أقصي يقول :

– اذا أذنتم يا سيدي الوزير ، فإني أحب ان أسأل مضيفنا الكريم منة صغيرة .

فقال الوزير :

– آه .. طبعاً !. لا مانع يا مستر .. جيسوب .

وقال الشرطي الانجليزي يخاطب مستر اريستيد :

– لقد التقينا أثناء جولتنا بالعديد من رجالك ومعاونيك . ولكني أحب ان التقي بصديق قديم ، موجود هنا ، فهل يمكن أن تأمروا باستدعائه ؟.

فقال الدكتور فان هايديم باستغراب :

– الك صديق هنا يا سيد جيسوب ؟

فرد جيسوب :

– بل الواقع ان لي صديقين هنا .. سيدة تدعى مسز بيترتون .. اوليف بيترتون وزوجها الذي كان يعمل في انجلترا في مركز هارويل العلمي ، وقبل ذلك كان مقيماً في الولايات المتحدة .. فهل يمكن ، قبل ان أنصرف ، أن أتحدث اليها ؟

وكان رد الفعل عند الدكتور فان هايديم رائعاً يدعو للاعجاب ..

لم ينم وجهه عن أثر المفاجأة ، وانما قطب جبينه في دهشة خالصة ، وأخذ يرد :

– بيترتون .. مسز بيترتون . لا أعتقد أن لدينا هنا أحداً بهذا الاسم .

واستطرد جيسوب :

– ويوجد هنا ايضاً شاب اميركي يدعى أندرو بيترز ، ومهنته باحث كيماوي فيما أعتقد .

والتفت الى السفير الأميركي قائلا :

– اليس كذلك يا سيدي ؟

وتريث السفير الأميركي برهة ، فهو دبلوماسي يزن موقع قدمه بدقة قبل أن يتقدم خطوة واحدة ، ثم قال :

– تماماً . تماماً .. اندرو بيترز .. اني أحب ان أقابله .

وزادت دهشة فان هايديم ، وبدت أصيلة لا زيف فيها وقال :

– اندرو بيترز ! أخشى يا سيدي السفير ، ان تكون المعلومات التي لديكم غير دقيقة ، فليس لدينا احداً بهذا الاسم ، بل اني لم اسمع بهذا الاسم من قبل .

فقال جيسوب باصرار :

– ولكنك سبق طبعاً ان سمعت باسم توماس بيترتون ؟.

وتردد فان هايديم برهة ، والقى بنظرة خاطفة نحو مولاه المليونير ، ثم تمالك نفسه وقال :

– توماس بيترتون ؟ آه .. اظن انه ..

وانبرى احد الصحفيين قائلاً :

– توماس بيترتون ؟ لقد كان حديث الصحف منذ ستة شهور عندما اختفى فجأة ، نعم ، كان في باريس لحضور احد المؤتمرات فإذا به يتخلف عن الجلسات ويختفي ، وقد بحث عنه البوليس في كل مكان دون ان يهتدى الى اي اثر له .. هل تريد يا سيد جيسوب ان تقول انه كان موجوداً هنا طوال الوقت ؟

وزايل فان هايديم هدوءه ، ومضى يتكلم في عصبية وانفعال ، فقال:

– اخشى يا سيدى ان يكون بعضهم قد زودك بمعلومات غير صحيحة

تلك دون شك اشاعة كاذبة .. انك رأيت جميع من يعملون لدينا . انك رأيت كل شيء هنا .

فقال جيسوب باصرار ولكن بهدوء :

– كلا . إننا لم نر كل شيء ، ولم نر كل من يعملون هنا .

واستطرد :

– هنا مثلاً شخص يدعى اريكسون .. وهنا أيضاً الدكتور لويس بارون ومن المحتمل ان تكون مسز كالفن بيكر هنا أيضاً .

وبدا على الدكتور فان هايديم انه ذكر فجأة شيئاً كان غائباً عنه فقد قال :

– آه !. ولكن هؤلاء القوم قتلوا جميعاً في مراكش في حادث سقوط طائرتهم .. إني أذكر الآن انني قرأت هذا النبأ في الصحف منذ أسبوعين إنني ، على الأقل ، متأكد من اسمين منهما : اريكسون والدكتور بارون ..

واستطرد :

– لقد منيت فرنسا بخسارة جسيمة فإن الدكتور بارون من كبار العلماء الذين لا يعوضون .. أما مسز كالفن بيكر فلا أعرف شيئاً عنها، وإن كنت أذكر انه كانت بين ركاب الطائرة سيدة إنجليزية أو أميركية ، لا أدري ، وربما كانت هذه السيدة هي مسز بيترتون إذا لم تخدعني ذاكرتي .

فقال جيسوب :

– إذاً فأنت مصر على اني مخطىء وهؤلاء القوم غير موجودين هنا ؟

فقال الدكتور فان هايديم :

– وكيف يكونون هنا وقد قتلوا جميعاً في حادث الطائرة ؟. اني أتذكر أن البوليس عثر على جثثهم بين الحطام .

فقال جيسوب في كلمات بطيئة متمهلة ليكسبها مغزى خاصاً .

– ولكن الجثث جميعاً كانت متضخمة بحيث استحال التعرف عليها ، ومعرفة شخصيات أصحابها .

ومن أحد أركان القاعة ارتفع صوت أجش يتكلم ، وإن كان صوتاً صارماً واضح النبرات .

قال الصوت :

– هل أفهم من قولك هذا أنه لم يمكن التعرف على أصحاب الجثث التي وجدت بين الحطام ؟

وكان المتكلم هو ذلك العجوز اللورد الفيرستوك ، الرئيس السابق للمحكمة العليا .

فقال جيسوب مجيباً :

– تماماً يا سيدي اللورد . كانت الجثث متفحمة اختفت معالمها ، فافترض البوليس انها جثث ركاب الطائرة المدونة أسماؤهم في السجل . لكن لدي من الأسباب ما يدفعني إلى الاعتقاد بأن ركاب الطائرة نجوا من الفاجعة وما زالوا أحياء . هذا هو اعتقادي .

فقال الرئيس السابق للمحكمة العليا في نبرة من الامتعاض :

– اعتقادك ؟. إن ما يعتقده الإنسان ليس دليلاً .

فقال جيسوب :

– بل الدليل حاضر يا سيدي اللورد .

– إذاً ما هو الدليل يا مستر جيسوب ؟

فرد جيسوب :

– في اليوم الذي غادرت فيه مسز بيلارثون فزان إلى مراكش كانت تتزين بعقد من اللآلىء المقلدة ، وقد عثرنا على حبة من هذا العقد على مسافة نصف ميل من حطام الطائرة .

فعاد القاضي القديم يتساءل في لهجة المحقق القدير

— وانى لك أن تتأكد أن الحبة التي عثرتم عليها هي من نفس العقد الذي كانت مسز بيترتون تتحلى به ؟

— لأن بجميع حبات العقد علامة سرية لا ترى بالعين المجردة ، وإنما تظهر تحت العدسة المكبرة ، وكانت الحبة التي عثرنا عليها مرسومة بنفس العلامة .

— ومن الذي وضع هذه العلامات على حبات العقد ؟

— أنا بنفسي يا سيدي اللورد .

واستطرد اللورد في استجوابه سائلاً :

— وما الذي دفعك إلى اتخاذ هذا الاجراء ووضع هذه العلامات ؟ اكان لديك سبب لهذا ؟

— نعم يا سيدي اللورد .. كان لدي ما يحملني على الاعتقاد بأن مسز بيترتون ستقودني إلى زوجها الذي كان قد صدر الأمر بالقبض عليه لإفشائه معلومات تمس أمن الدولة .

واستطرد غيسوب :

— ولم تكن اللؤلؤة المعلمة التي عثرنا عليها بالقرب من حطام الطائرة الوحيدة ، بل عثرنا على لؤلؤتين أخريين على طول الطريق بين الموضع الذي احترقت فيه الطائرة ، وبين المكان الذي نحن فيه الآن وقد أسفرت التحريات التي قمنا بها في الجهات التي عثرنا فيها على حبات اللؤلؤة عن مرور أشخاص بهذه المناطق وأوصافهم العامة مع أوصاف ركاب الطائرة المحترقة .

وتابع حديثه قائلاً :

— وليس هذا فقط ، بل انني كنت زودت أحد ركاب الطائرة بقفاز على كفه بالفوسفور ، وطلبت إلى هذا الشخص أن يخرج يده المكسوة بالقفاز من نافذة السيارة أثناء الليل عند مروره بالقرى ، فيضوء الفوسفور في

الظلام ، فتتناقل الناس أن يد « الشيخة فاطمة » ظهرت في هـذه القرى ، وتبلغنا الاشاعة طبعاً ، وبذلك يسهل علينا اقتفاء أثر هذه الجماعة .

فقال القاضي القديم متسائلاً :

– الشيخة فاطمة ! ومن تكون الشيخة فاطمة هذه ؟

فأجاب :

– الشيخة فاطمة في نظر السذج من أهل هذه البلاد إمرأة مبروكة ، وهم يعتقدون انه إذا ظهرت يدها التي تشع نوراً لأحد الناس حلت عليه البركة والخير ، فرأيت أن استغل هذه الخرافة لتسهل مهمة المطاردة والمراقبة على رجالي ..

وفعلاً ظهرت يد الشيخة فاطمة من نافذة سيارة كانت في طريقهـا إلى هذا المركز العلمي .

فهز اللورد الفيرستوك رأسه المجللة بالشيب ، وتألقت عيناه تحت حاجبيه الكثيفتين وقال :

– رائع .. رائع . تدبيرات تدل على الدهاء .

وتململ مستر أريستيد في مقعده الكبير ، ورمش بطرفه مرة أو مرتين أثناء هذه الرواية : رغم ما يتسم به من ثبات الأعصاب .

واعتدل القاضي في مقعده ونصب قامته .

ثم أطلق سؤاله الحاسم :

– وأين اهتديتم إلى الآثار الأخيرة لهذه الجماعة من الناس ؟

في مطار حربي مهجور من مخلفات الحرب الماضية .

وبسط غيسوب وصفاً دقيقاً لرقم المطار .

وقال مستر أريستيد معقباً :

– هذا المطار يقع على مئات الأميال من هذا المركز العلمي ، فـإذا نحن افترضنا جدلاً أن حادث احتراق الطائرة كان مصطنعاً ، وإن ركاب الطائرة

نقلوا بعد هذا إلى المطار المهجور ، فمن أين لك أن تعرف انه جيء بهم بعد هذا الى مستعمرة الجذام ؟

فأجاب جيسوب :

– إن لدي أسباباً قوية تؤيد هذه النظرية ، لقد بعثنا باحدى الطائرات تمسح المنطقة المشكوك في امرها ، وقد طارت أثناء بحثها فوق هذا المبنى على ارتفاع منخفض جداً ، وأثناء طيرانها تلقى الطيار إشارة لاسلكية خاصة كان متفقاً عليها مع شخص من ركاب الطائرة كنا قد زودناه بجهاز إرسال لاسلكي يرسل ذبذبة معينة ، وبذلك نهتدي إلى مكان حامل الجهاز .. وفهمنا من هذه الاشارة اللاسلكية إن الجماعة التي نبحث عنها موجودة في مستعمرة الجذام .

وقال مستر اريستيد محكاً :

– يا مستر جيسوب ، ولكنني ما زلت أعتقد ان هناك مؤامرة مدبره لتضليلك وإيقاعك في الخطأ ، فإن هذه الجماعة التي تحدثت عنها غير موجوده في مستعمرة الجذام .

ثم استطرد :

– ومع ذلك فإن لك مطلق الحرية في أن تفتش هذا المبنى إن شئت .

فأجاب جيسوب :

– وما الفائدة يا سيدي ؟ إن تفتيش هـذا المبنى لن يسفر عن شيء على الاطلاق ، ثم إننا رأينا منه حين تجولنا ما فيه الكفاية ، فلا داعي للقيام بجولة أخرى ؟

فقال اريستيد :

– انك تناقض نفسك يا سيدي . كيف تؤكد ان الجماعة موجودة هنا وفي الوقت ذاته تقول ان تفتيش المنزل لن يسفر عن العثور عليهم .

– هذا لأنني أعرف انهم موجودون في مكان سري خفي .

– وأين هذا المكان السري الخفي ؟ هل تستطيع أن تحدده ؟

فابتسم جيسوب وقال :

– انه في الدهليز الرابع المتصل بالمعمل الثالث ، في أقصى النقطة التي تنحرف يساراً .

وتململ الدكتور فان هايديم في مقعده بحركة مفاجئة ، وثبت نظارته على عينيه ، فأفلتت من بين اصابعه المرتعشة ، ووقعت فوق السجاد ، فانحنى يلتقطها .

وتطلع اليه جيسوب باسماً وقال :

– ها أنت ترى يا دكتور ان معلوماتنا مؤكدة وصحيحة .

وقال الدكتور فان هايديم في انفعال :

– هذه إهانة ! اهانة شديدة ! اتريد ان تزعم اننا نسجن هنا بعض الناس رغماً عن ارادتهم ؟ انني انكر كل هذا انكاراً قاطعاً .

– اتدري كيف عرفت ان العلماء في هذا المكان السري من المبنى ؟ ان رجلاً من اعواني خدعكم وانضم اليكم على انه واحد من العلماء ، ومع مساعدي هذا جهاز لاسلكي يرسل ذبذبة معينة ، وعند مروري بالدهليز الرابع تلقى الجهاز الذى احمله داخل ساعتي هذه الذبذبة الصادره من الجهاز الآخر .

وقال الوزير في صوت يخالجه التردد :

– لقد انتهينا الى موقف دقيق . فهذا يؤكد وذاك ينكر بنفس القوة والحماس .

وتكلم المليونير .. قال بسكينة :

– ان ما سمعناه قصة طريفة مسلية ، ولكن كل ما جاء بها مجرد افتراضات وتكهنات ، لا تعدو ان تكون شبيهة للروايات البوليسية ، ولهذا اسمحوا لي أيها السادة أن أقول ان الوقت قد حان لكي تنصرفوا ، فإن لدى مشاغل جمة تدعوني الى الرجوع الى اسبانيا فوراً ، كما ان موعد

رحلتكم قد فات منذ وقت غير قصير ، فإذا تأخرتم اكثر من ذلك اثرتم القلق في البلاد اذ ستبادر الى الاذهان ان طائرتكم تهشمت في رحلتها .

وتبادل جيسوب وليبلان النظرات ، فقد ادركا ان الموقف اصبح حاسماً وأنه وصل الى نقطة المواجهة الصريحة القاطمة .

إن مستر أريستيد يستنجد الآن بكل نفوذه ومكانتــه للقضاء على الشكوك التي ثارت ، فهو يتحدى هؤلاء القوم بكل ما لديه من شجـــاعة ، محاولاً أن يفرض عليهم إرادته .

والوزير في حرج من أمره ، لا يدري كيف يتصرف ، إذ لا شك ان رئيس الحكومة طلب أن يكون مرناً وعلى حذر ..

ومدير الشرطة حريص على أن يرضي الوزير وأن يمالئه ويجاريه ..

والسفير الأميركي قد يكون مقتنعاً إلى حد كبير ، ولكنه بحكم منصبه حريص أن يكون لبقاً حتى لا يتورط في أزمة سياسية ..

أما القنصل البريطاني فمنصبه أتفه من أن يتحدى الآخرين .

وتطلع جيسوب إلى الصحفيين ، واحداً بعد الآخر ، إن أمله معلق بها ، ولكنه ما كان ليجهل ان مستر اريستيد يستطيع أن يشتريها وقد يكون الثمن باهظاً ، ولكنه على أية حال يستطيع أن يطويها .

وأخيراً استقر نظر جيسوب على الرجل العجوز ، هذا القاضي القديم .. الرئيس السابق للمحكمة العليا .

كان منكمشاً في مقعده ، ومن تحت حاجبيه الكثيفين النافري الشعر ، كأنها شجرة صغيرة كانت عيناه تبرقان .

تأمله جيسوب برهة ..

ثم قال في نفسه :

– نعم .. هذا الرجل الذي لا يستطيع أحد أن يشتريه !

وأفـــاق جيسوب من خواطره على صوت صارم النبرات ، هو صوت

القاضي القديم !

كان الصوت الصارم يقول :

- انني أرى أن نتريث قليلا وأن لا نبادر بالرحيل .. إن أمامنا الان قضية بحاجة إلى المزيد من التحقيق لاستجلاء غوامضها .. هنـــاك اتهامات خطيرة وجهت وما كان ينبغي أن توجه ، كما انه لا ينبغي أن نسقطها من حسابنا دون تقدير .. وانصافاً للعدالة وإحقاقاً للحق يجب أن نتيح كل فرصة لتنفيذ هذه الاتهامات أو إقامة الدليل عليها .

فلوح مستر اريستيد وقال مشيراً إلى جيسوب :

- إن البينة على من ادعى ، فعليك أن تقيم الدليل على ما تقول ، إنك نثرت الاتهامات يميناً وشمالاً دون دعمها بالبراهين .

- كلا أيها السادة ، فالبراهين حاضرة وموجودة

لم يكن جيسوب هو الذي نطق بهذه العبارة ، ولم يكن ليبلان هو الذي تفوه بها

كان الصوت صادراً من اقصى ركن في القاعة

كان الصوت صادراً من خادم مراكشي من البربر له وجـه شديد السمرة يكاد لونه يضرب إلى السواد

واستدار الدكتور فان هايديم في حركة عنيفـة يتطلع في دهشة إلى الخادم المراكشي .

واستقرت عليه ايضاً أنظار الجماعة كلها مشدوهين .

واستطرد الصوت يقول بهدوء :

-- نعم .. ان الدليل حاضر ايها السادة .. ان لكم أن تأخذوا بشهادتي في التو واللحظة . لقد أنكر هؤلا السادة وجود افراد هذه الجماعة هنا : اندرو بيترز ، وتوركيل اريكسون ، ومستر ومسز بيترقون والدكتور لبس بارون ولكنه انكار كاذب ، فجميع هؤلاء .. جميعهم موجودون

هنا ، وأنا أتكلم باسمهم بالنيابة عنهم .

وتقدم الخادم المراكشي خطوة إلى الأمام ، ووقف أمام السفير الأميركي وقال يخاطبه :

– قد يكون من الصعب عليك معرفتي ، يا سيدي السفير ، وأنا على هذه الهيئة ؟

فتأمله السفير الأميركي برهة وعلامات الحيرة تبدو على وجهه .

واستطرد المراكشي ذو الوجه الأسود :

– سيدي السفير انني أندرو بيترز !

وبدرت شهقة خافتة غير ملحوظة من بين شفتي مستر أريستيد ، لكنه ما لبث ان استعاد ثباته ورباطة جأشه .

واستطرد اندرو بيترز :

– وهؤلاء ليسوا هم الوحيدين الموجودين هنا ، فهناك غيرهم كثيرون : شوارتز من ميونيخ ، وهيلدا نيدهام ، وكذلك جيفري وداقيدسون العالمان الانجليزيان الشهيران ، وهنا أيضـــا بول ويد من الولايات المتحدة ، وكذلك الايطاليان روكو شيتو وبيانكو ، وأيضاً ماشيسون .. وكثير غيرهم .. كل هؤلاء هنا .. في هذا المبنى .

وتابع الحديث قائلاً :

– في هذا المبنى أيها السادة جناح سري يسمى قاعة الطوارىء ، لها باب سري في جدار أحد الدهاليز لا يمكن لمين ان تتبينه لأنه لا يتراءى إلا جزءاً من الحائط .

وهتف السير الأميركي :

– يا إلهي !. هذا صحيح .. إنك فعلاً اندرو بيترز ، لكن ما هاتان الشفتان الغليظتان .

فابتسم الخادم المراكشي قائلاً

ـ حقنة واحدة من البارافين في الشفتين تكسبهما هذه الغلاظة ، أما لوني فمرجعه صبغة دهنت بها وجهي .

وحين قال لكم مستر جيبسوب ان له مندوباً اندس بين العلماء فإنما كان يعنيني بهذا القول فأنا الذي أرسلت الاشارة اللاسلكية بشفرة المورس إلى الطيار الذي كان يحوم فوق المستعمرة الذي يحمله مستر جيبسوب كانت صادرة مني .. من هذا الجهاز .

وأخرج من جيبه علبة سجائره الكبيرة الحجم ، والمصنوعة من غلاف إحدى القنابل ، وقال :

ـ إن جهاز الارسال الذي معي مخبأ داخل هذه العلبة .

فقال السفير :

ـ إذا كنت حقاً أندرو بيترز فما هو رقمك السري في المخابرات ؟

فرد على الفور :

ـ ٨١٣٤٧١ يا سيدي .

ـ تماماً .. وما هي رموز اسمك الحركي السري ؟

ـ ب. أ. ب. ج. يا سيدي .

ـ تماماً .. هذا الرجل هو أندرو بيترز دون شك .

فتنحنح الوزير وعلا صوته ثم قال في شيء من التردد :

ـ هل تزعم ان هؤلاء القوم ، مسجونون هنا كرهاً عنهم ، وعن غير إرادتهم ؟

ـ بعضهم فقط أما البعض الآخر فرغماً عنهم يا سيدي الوزير .

فقال الوزير :

ـ في هذه الحالة يجب اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالتحقق من هذا الادعاء .

ونظر الى مدير الشرطة ، فتقدم هذا خطوة الى الأمام .

فلوح مستر اريستيد بيده قائلاً :

– لحظة أيها السادة . يبدو لى مما سمعت ان القائمين على إدارة هـذا المركز العلمي قد خانوا الثقة التي وضعنها فيهم ، هذا إذا صحت مزاعم السيد جيسوب

ونقل نظراته الباردة الصارمة من الدكتور هايديم إلى مدير المركز ، وكان منطوياً في نظرته أمر صادر اليهما بأن يلزما الصمت . وكان على يقين من ان أمره مطاع ، فبـأمواله يشترى سكوتهما ، وبنفوذه يخرجهما من ورطتهما . واستطرد .

– إن مـا أقدمتما عليه أيها السيدان أمر خطـير لا يبرره حماسكما للعلم .. فقد أنشأت هـذا المركز خدمة للانسانية وتدعيمـاً للبحث العلمي الخالص ، وبعد ذلك نفضت يدى من إدارته الفعلية . فإذا صح يا عزيزى المدير ان في هذا المركز قوماً محجوزون على غير إرادتهم فإني أشير بأن تبادر على الفور باطلاق سراحهم .

فقال مدير المركز :

– لكن يا سيدى .إنني..

فقاطعه مستر اويستيد :

– نعم ، يجب ان تنتهي هذه التجربة على الفور .

ثم استدار إلى ضيوفه قائلاً :

– لا أحسب أيها الساده انني في حاجة لأن أؤكد لكم انه لا شأن لي مطلقاً بما يحصل هنا . فقد خان القـائمون على هذا المركز ثقتي ، وحق عليهم العقـاب .

وكانت كلماته أمراً قاطعاً لا رجعة فيه ؛ أولاً بسبب ثروته ، وثانياً بسبب نفوذه ومكانته .. إن أحداً لن يجرؤ على ان يتعرض له بسوء وحتى أعوانه لن يستهدفوا للعقاب ، لأن نفوذه كفيل بانقاذهم .

إن مستر اريستيد المليونير المعروف ، والمحسن الكبير ، والرجل المرموق

في عالم المال والذي يسيطر على البنوك والمؤسسات التجارية والصناعية ، لا يجب ان يتورط اسمه في هذه المشاكل او أن يمسه أحد بكلمة .

وكان مستر اريستيد على يقين لا تخالجه ذروة من الشك في أن هذه الفضيحة ستطوى في طي الكتمان .

واستطرد :

ـ نعم ، أيها السادة .. إنكم تعلمون جميعاً انه لا علاقة لي إطلاقاً بما حدث هنا . كل مهمتي هي تقديم المال للبحث العلمي خدمة للانسانية .. والآن أرجو ان تسمحوا لي بالانسحاب فقد حان موعد سفري .

ونهضوا وقوفاً، وانحنوا جميعاً تحية واحتراماً، وكان الوزير والسفير وعضو البرلمان هم أكثر الناس انحناء !.

ـ تمت ـ